سيد مهدي عنبه

أشعار بيرم التونسي

في سيرة الظاهر بيبرس

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **أشعار بـــيرم التونسي**

في سيرة الظاهر بيبرس

المـــــؤلف : **سيد مهـــدي عنبـــه**

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٧

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميـدان حليـــم خلـــف بنـك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى روح العبقرى بيرم التونسى

الذى أبـــــدع فيما أبدع سيرة

فارس الفرسان و«أبوالفتوحات»

الظاهر بيبرس

■■ مقدمة

بدأت حكايتى مع سيرة الظاهر بيبرس منذ أن كنت تلميذاً بالمرحلة الإعدادية عام ١٩٦٠، حيث أذيعت هذه السيرة على حلقات يومية من إذاعة الشعب آنذاك، وكانت وسيلة الاستماع فى ذلك الوقت هى راديو بدائى، يبدأ بسلك نحاسى يوضع أعلى المنزل لالتقاط إشارة الإذاعة وينتهى بسماعة أذن توضع فى بوق لتضخيم الصوت ليغطى الحجرة التى نجلس فيها. ولشدة تعلقى بهذه السيرة كنت أقف على كرسى وأكاد أضع رأسى داخل البوق المعلق بسقف الحجرة حتى لا تفوتنى همسة من أى حلقة من بدايتها إلى نهايتها.

والواقع أن هذه السيرة وبالطريقة التى قدمت بها تركت تأثيراً عميقاً فى نفسى، وبدأ منذ ذلك الحين إعجابى بأشعار بيرم التونسى، حيث كانت كل حلقة بها مقطوعتان من الشعر ضمن السياق الدرامى للسيرة، وكان يؤدى هذه الأشعار على الربابة السيد فرج السيد شاعر الربابة الشهير بطريقة أكثر من رائعة.

فى عام ١٩٦٣ قرأت كتاباً عن الظاهر بيبرس صدر فى سلسلة أعلام العرب للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة، من هذا الكتاب تعمق حبى وتقديرى للظاهر بيبرس الذى جسد عندى مفهوم الحاكم البطل.

وفى عام ١٩٧٩ أعيد بث حلقات سيرة الظاهر بيبرس من الإذاعة مرة أخرى، فقمت بتسجيلها، وبهذا تمكنت من الاستماع إليها عدة مرات، ومع

درجة النضوج المصاحب للمرحلة العمرية بالنسبة لى فى ذلك الوقت، اكتشفت ما فيها من عمق وجمال وزاد إعجابى وانبهارى بأشعار عمنا بيرم التونسى. وكانت هذه الحلقات من الأسس التى بنى عليها هذا الكتاب، بالإضافة إلى كتاب الظاهر بيبرس للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وكتب أخرى متخصصة فى تاريخ وسيرة الظاهر بيبرس.

مرت سنوات طويلة لكنها لم تُمح من ذاكرتى تأثرى وإعجابى بهذه السيرة، من حيث رمزية البطولة أو الأشعار السهلة الممتنعة التى بها؛ لذا شرعت فى تقديم هذا الكتاب الذى يحتوى على جزأين : الأول عبارة عن مشاهد من تاريخ الظاهر بيبرس الموثق بشهادة مؤرخى عصره، وهذه المشاهد متوجة بالأشعار التى جاءت فى سياق السيرة الشعبية عند معالجتها لهذه المشاهد، التى قصد منها إعطاء جرعة ثقافية تاريخية عن فترة هامة من تاريخنا. أما الجزء الثانى فيسرد مشاهد لها ظل تاريخى ولكن فيها خيال المؤلف، ذلك الخيال الذى يخدم الغرض المنشود من وراء إبداع هذه الملحمة التى أعاد بيرم التونسى صياغتها بحرفية عالية تبتعد بعض الشيء عن الخيال المفرط الذى صاغه الوجدان الشعبى منذ العصر المملوكى حتى بداية العصر التركى. وقد تم استخدام هذه المشاهد بالإضافة إلى المشاهد التاريخية كلوحات جدارية نقشت عليها الأشعار والأزجال التى يحتويها الكتاب.

والله ولي التوفيق

سيد عنبه

■■ تقديم

"السيرة الشعبية " هى قصص مستوحاة من التراث العربى الأصيل وهى تمجد الأخلاق العربية الأصيلة كقوة العربى وعزته وشهامته، وتنبذ الأخلاق السيئة كالخيانة والغدر. وتتعدد السير الشعبية فى المأثور الشعبى العربى، ورغم اختفاء عدد منها، فإن أن ما بقى منها كثير إذا قورن بالموجود لدى الشعوب الأخرى. ومن أبرز السير التى مازالت راسخة فى الذاكرة الشعبية العربية الآتى:

* السيرة الهلالية (سيرة بنى هلال)
* عنتر بن شداد
* سيف بن ذى يزن
* الظاهر بيبرس
* الأمير حمزة البهلوان
* دلهمه (ذو الهمة)

إلا أن سيرة الظاهر بيبرس على وجه الخصوص تتميز عن باقى السير الشعبية لكونها سيرة لحاكم له تاريخ موثق، وبطل جسد كل معانى البطولة، وملك بكل لوازم الملك، وسلطان بكل مقتضيات السلطة، ومع بداية حكمه بدأت صفحة جديدة فى تاريخ مصر والمنطقة المحيطة بها. خاض قتالا ضاريا ضد التتار، بل ودوخهم وأذلهم وبدد أحلامهم. كما أرعب ملوك الإفرنج فى الشام وغير الشام، فجاءوا إليه وقبلوا الأرض بين يديه؛ لذا حمل الوجدان الشعبى سيرته من جيل إلى جيل، ومازال الناس يحنون لسماعها حتى الآن.

فى خمسينيات القرن العشرين أعاد بيرم التونسى صياغة هذه السيرة بشكل ينم عن فهم عميق لملحمة الجهاد التى قادها الظاهر بيبرس ضد

الأخطار التى كانت تواجه الأمة فى ذلك الوقت، كما ضمنها كثيرا من الإسقاطات على الحاضر الذى نعيشه الآن، هذا بالإضافة إلى مجموعة هائلة من الأشعار والأزجال التى تخدم السياق الدرامى لأحداث السيرة.

والحقيقة إذا تأملنا هذه السيرة - التى قدمت بالإذاعة المصرية على حلقات - يزداد انبهارنا بالموسوعية المعرفية للعبقرى بيرم التونسى فى علوم شتى، فنراه مستوعبًا جيدًا لأحداث التاريخ، وعارفًا بجغرافية المنطقة التى دارت فيها الأحداث، ومحللاً لسيكولوجية الأشخاص والجماعات التى أتى ذكرها بالسيرة، ومطوعًا وناحتًا للكلمات كى تعبر عن المواقف الدرامية، وأشياء كثيرة لا يمكن أن تتوفر فى شخص واحد إلا إذا كان عبقريًا .. وبيرم التونسى كان كذلك.

فى أسلوب شائق ولغة رائقة أجاد الشاعر سيد عنبه اقتطاف بعض الزهور الجميلة من دوحة عمنا بيرم التونسى التى تتغنى بالبطل الشعبى المسلم محمود بيبرس الملقب بالظاهر بيبرس صاحب الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية المهمة والانتصارات العسكرية الأهم، ومن ثم استحق هذا البطل الحضور فى الوجدان الشعبى كما سبقأن أوضحنا.

وقد اختار المؤلف - سيد عنبه - مختاراته بذكاء شديد وحس وطنى أشد، حيث برهن بهذه الاختيارات على أن التاريخ مدرسة كبرى يجب التعلم منها دائما لإصلاح الواقع وتعديل مساراته.

د. حسين عبد العظيم

الجزء الأول

مشاهد من التاريخ والسيرة الشعبية

■■ تمهيد

لعل من المفيد أن نلقى بعض الضوء على شخص بيبرس ذاته قبل تقلده أمور السلطنة فى دولة المماليك، وكذلك كيف قامت هذه الدولة، والأخطار التى كانت بمحيطها، حتى نتعرف على شكل المسرح الذى ظهرت عليه المشاهد التاريخية التى يتناولها الكتاب.

لا يوجد إجماع فى كتب التاريخ المعاصرة على رواية واحدة عن نشأة بيبرس، وإن كانت أغلب هذه الكتب قد اتفقت على أنه ينتمى إلى "الترك"(*)، وأنه من مواليد بلاد القفجاق (كازاخستان حاليا)، وقد أمضى فى تلك البلاد طفولته الأولى، حيث أغار عليها التتار حوالى عام ١٢٤٢م، وكان بيبرس ضمن الأسرى، واشتراه أحد تجار الرقيق فى سيواس، وتنقل بعد ذلك فى صحبة تجار الرقيق إلى دمشق وبعدها حماه حيث اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار، ولهذا نسب بيبرس إلى أستاذه الأول، فأصبح يعرف باسم بيبرس البندقدار. ثم انتقل مع الأمير علاء الدين البندقدار إلى مصر.

وعندما علم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أن أحد أمرائه قد حصل على مملوك صغير اسمه بيبرس تبدو عليه علامات الفطنة والنجابة، حتى طمع فى الاستحواذ عليه. وبانتقال بيبرس إلى ملكية الصالح أيوب، دخل المملوك الصغير دوراً جديداً واضحاً من أدوار حياته. وصار من المماليك البحرية الذين أسكنهم الصالح أيوب قلعة الروضة. ولم يلبث السلطان الصالح أيوب أن أعتق ذلك المملوك. مما أتاح الفرص أمام بيبرس لكى يبرهن على كفايته وشجاعته فى ميادين أوسع؛ حتى اختاره الصالح أيوب مقدماً على طائفة الحمدارية؛ لما رأى من فطنته وذكائه. ومع مرور الأيام ارتفع نجم بيبرس بسرعة عند الصالح أيوب الذى توفى عام ١٢٤٩م.

(*) مصطلح الترك: يطلق على الشعوب التى تتحدث اللغات التركية كافة مثل الآذر والكازاخ والتتار والقبجاق وغيرها، وموطنهم الأصلى وسط آسيا. أما الأتراك فهم من يسكنون دولة تركيا الحالية.

فى هذه الأثناء تمت معركة المنصورة التى قام فيها المماليك البحرية - وفى مقدمتهم بيبرس - بدور بارز فقويت شوكتهم وازداد نفوذهم، وفى ذلك الوقت وصل تورانشاه ابن السلطان الصالح أيوب إلى مصر ونودى به سلطانا على البلاد؛ فعز على تورانشاه أن يجد فى المماليك البحرية قوة تقاسمه بل تفوقه فى النفوذ.

ساءت العلاقات بين السلطان تورانشاه من ناحية والمماليك البحرية - وعلى رأسهم الأمير ركن الدين بيبرس - من ناحية أخرى، وأصبح كل طرف يتربص بالآخر. واستقر رأى زعماء المماليك البحرية على قتل تورانشاه، وتم ذلك بالفعل وبموته انتهت دولة الأيوبيين فى مصر.واتفق المماليك البحرية على تولية زوجة أبيه شجر الدر، التى لم تكن من سلالة بنى أيوب، بل على العكس كانت من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك. على أن قيام امرأة فى الحكم كان أمراً لم يألفه المسلمون فى ذلك الوقت؛ لذلك اجتمع زعماء المماليك البحرية واتفقوا على أن تتزوج شجر الدر من عز الدين أيبك أتابك العسكر على أن تتنازل له عن السلطنة، وبدأ بذلك عصر دولة جديدة فى مصر، هى دولة المماليك(١٢٥٠إلى ١٥١٧م)، ولم تستقر الأوضاع فى هذه الدولة إلا بعد تولى المظفر قطز الحكم، ثم خلفه الظاهر بيبرس.

ولدت دولة المماليك وهى تواجه فى محيطها مشكلتين كبيرتين كانتا فى حقيقة الأمر أكبر خطرين هددا بلاد المشرق العربى فى العصور الوسطى، وهما المغول من الشرق والصليبيون من الغرب، وقد عبر بيرم التونسى عن ذلك بقوله :

جيش التتار من الشرق هاجم ومن البحار داخله جيوش الروم

ولم يتقاعس سلاطين المماليك عن النهوض بتلك المسئوليات الضخمة، فواصلوا الجهاد ضد المغول والصليبيين. ولم يكتفوا بطرد آخر بقايا الصليبيين من الشام، وإنما استأنفوا الحرب ضدهم فى بقية قواعدهم بالشرق الأدنى: فى أرمينيا الصغرى، وفى قبرص، وفى رودس. وبالنسبة للمغول فإن سلاطين المماليك أنزلوا بهم الهزائم المتلاحقة تارة فى عين جالوت، وطورا عند حمص، أو أطراف العراق.

وسط هذه الأحداث الجسام والحروب الضارية برز السلطان الظاهر بيبرس؛ ليقوم بدور الحاكم البطل الذى خلد اسمه فى التاريخ، إذ قضى طوال حكمه فى حركة دائمة بين مصر والشام يحارب الصليبيين

حينا والمغول أحيانا أخرى. كما بسط نفوذه إلى اليمن والنوبة جنوبا، وإلى العراق وسلاجقة الروم شمالا، بالإضافة إلى أنه أحيا الخلافة الإسلامية بالقاهرة؛ مما كان له أبلغ الأثر والنتائج بالنسبة للتاريخ الإسلامى عامة وتاريخ مصر خاصة. كما شهد عصره نشاطًا اقتصاديا واسعًا فى ميادين التجارة والزراعة والصناعة. أما عن منشآته فقد كان بناءً بالفعل، إذ أقام كثيرا من المنشآت الدينية والاجتماعية والعمرانية بوجه عام فى جميع أرجاء دولته الواسعة.

وقد توفى"أبو الفتوحات" الظاهر بيبرس رحمه الله فى ٣٠ يونيو ١٢٧٧م بعد أن جاوز الخمسين من عمره، وحكم سبعة عشرة عامًاوشهرين واثنى عشر يوما. ودفن فى بدمشق - حسب وصيته - فى ضريح حجرى مهيب لا يبعد عن الجامع الأموى أكثر من ثلاثمائة متر. على أن ذكراه العاطرة وبطولاته النادرة وشجاعته فى مواصلة الجهاد، جعلت المؤرخين كافة يترحمون عليه ويشيدون بكفاحه؛ولذا حرص الناس أجيالاً عديدة على التغنى بسيرته، ومازالوا يحنون لسماعها.

وقد كرمته مصر بإطلاق اسمه على أحد أحياء القاهرة القديمة "حى الظاهر" كما وضع له تمثال نصفى - بجانب تمثالين لكل من سيف الدين قطز وصلاح الدين الأيوبى - بالمتحف الحربى بالقلعة.

تمثال الظاهربيبرس بالقلعة

■■ السيرة الظاهرية

تعد سيرة الظاهر بيبرس أو السيرة الظاهرية من أشهر السير الشعبية التى تغنى بها شعراء الربابة على مدى سنين طويلة، وتتميز السيرة الظاهرية عن مثيلاتها من السير الشعبية بأنها تروى سيرة حاكم له تاريخ موثق، واستمر فى الحكم لأكثر من سبعة عشر عاما (١٢٦٠ إلى ١٢٧٧م)، وأيضا بطل جسد معنى البطولة في معارك حربية حقيقية تعتبر من أشهر المعارك الإسلامية في العصور الوسطى، بدءا بمعركة المنصورة التى أسر فيها لويس التاسع عشر ملك فرنسا مروراً بمعركة عين جالوت الشهيرة إلى معاركه مع الصليبيين وانتزاع مدينة من أهم حصونهم في المشرق العربى وهى أنطاكية عام ١٢٦٨م، وبهذا يكون قد حقق أكبر نصر للمسلمين على الصليبيين في بلاد الشام منذ تحرير صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس عام ١١٨٧م، وأيضا معاركه المتتالية مع المغول ومطاردته لهم في عقر دارهم.

كما أنه يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام، وإليه يرجع الفضل فى ابتكار الكثير من نظم تلك الدولة ووضع القواعد التى سارت عليها بعد ذلك طوال عدة قرون؛ ولهذا فإن مؤرخى عصر المماليك أنفسهم - أمثال المقريزى وأبى المحاسن والعينى وابن إياس - لم يروا فيه إلا بطلا "أقام منار الإسلام والناس نيام"؛ ووصفوه بأنه "كان من خير ملوك الإسلام"، وأنه قضى حكمه فى"الذب عنهم من العدو المخذول" وأنه كان "ملكا شجاعا مقداما غازيا مجاهدا مرابطا خليقا بالملك " وقد قال عنه المقريزى "وبالجملة فلقد كان من خير ملوك الأرض".

وكان ضاربا على أيدى المجرمين، مكرما للأتقياء والصالحين، وأمر بإراقة الخمور وإبطال المنكرات والخواطى بجميع بلدان السلطنة. وكان فارسًا.. بل فارس الفوارس، هو دائما فى الطليعة من صفوف جيشه، يخرج من غزوة ليدخل فى أخرى، ويعود من قتال ليستعد لقتال. ولعل بيرم التونسى قد عبر بصدق عن عقيدة بيبرس ورؤيته لقيمة الجهاد ضد العدو حين كتب على لسانه موجها كلامه إلى الجنود الذاهبين لقتال العدولتحيتهم وتشجيعهم..فقال :

لا الوقفه فى عرفات ولا العيد فى منى ... أفضل من الساعى وسيفه معاه
ساعى يجود بالروح أغلى ما يمتلك ... لله ومالـه قصد غير رضاه
جيش الجهاد منى إليه التحيه ... وقبل منى ربنا حياه
وجوه مضيئه نورها يشبه القمر ... فى أوج أبراجه وعز ضياه
وجوه كساها الحرب نور المهابه ... تلقى العدو الرعب فى أحشاه
أنا ما رأيت سلاطين ألا يا فوارس ... أعز منكم فى البها والجاه

وبالجملة كان ملكا بكل مقتضيات الملك: من مهابة.. وسلطة.. ويقظة واحتيال..وألاعيب السياسة. ولم يكن أبله كأولئك الملوك الذين يفقدون عقولهم أمام بهرج عروشهم.

ولكل ما سبق تحول الظاهر بيبرس في الوجدان المصرى من حاكم

عادى إلى بطل يروى سيرته قصاصون محترفون أو شعراء الربابة في مقاهى القاهرة ودمشق أيضا التى تخصص بعضها في سيرته حتى وقت قريب، وكانت تعرف هذه المقاهى ب"المقاهى الظاهرية". وهذا يعد استثناء فى التاريخ العربى والتاريخ بوجه عام. وقد أضاف شعراء الربابة على هذه السيرة أشعاراً وأزجالاً وأمثالا شعبية لجذب المستمعين حتى أصبحت أضخم ملاحم الأدب الشعبى العربى، إذ يبلغ عدد صفحاتها بعد تجميعها حوالى ١٦ ألف صفحة.

بيرم التونسى

وفى عام ١٩٦٠ أعاد بيرم التونسى كتابة سيرة هذا البطل بأسلوب عصرى بالمقارنة مع السيرة التى كُتبت في العصر المملوكى، وأضاف إلى التسلسل الدرامى للأحداث مجموعة هائلة من الأشعار والأزجال. وقدمت هذه السيرة من خلال إذاعة الشعب (القاهرة الكبرى الآن) فى حلقات على جزأين: الجزء الأول فى ٨٢ حلقة، زمن الحلقة نصف ساعة، أماالجزء الثانى فكان فى ٨٨ حلقة مدة الحلقة ربع ساعة. وقد توفى المرحوم بيرم التونسى فى ٥ يناير عام ١٩٦١ فى أثناء إذاعة هذه

الحلقات، وبالتحديد بعد إذاعة الحلقة رقم ٧٩، وكان قد سبق له الانتهاء من الكتابة حتى الحلقة ٨٧؛ فأكمل الشاعر عبد الفتاح مصطفى وكتب الحلقة ٨٨.

ظلت أشعار وأزجال هذه السيرة حبيسة الأشرطة التى سجلت عليها حتى وقتنا هذا، إلى أن وفقنى الله للقيام بكتابتها على الورق بعد الاستماع إليها عشرات المرات بصوت شاعر الربابة الذى أداها وهو السيد فرج السيد، وعلى هذا فإن هذه الأشعار تنشر لأول مرة مكتوبة فى كتاب. علما بأننى قد نشرت بعضاً منها ضمن مقالات على شبكة الإنترنت من خلال موقع " بوابة الحضارات " التابع لجريدة الأهرام.

ما أحوجنا الآن إلى الاستماع إلى هذه السيرة التى تمثل ومضة مضيئة في تاريخنا فيها كثير من العبر والدروس التى تفيدنا في وقتنا الحاضر. وفى هذا المقام أقدم لقطة عبقرية كمثال من هذه السيرة، عبارة عن قصيدة فند فيها بيرم التونسى مزاعم الحملات الصليبية على المشرق العربى وهى نفسها الحجج والمزاعم التى تسوقها فى وقتنا الحاضر بعض الدوائر فى الدول الغربية بقصد التدخل فى شئوننا الداخلية. والقصيدة على لسان الأمير ركن الدين بيبرس (قبل السلطنة) يرد بها على الشروط التى حملها إليه جاسوس الإفرنج " جوان(*)" رغم أن لويس كان في الأسر، ويقول فيها:

شاعر الربابة

السيد فرج السيد

إليـــك يـــا ســـفير منـــى رســـاله ... لملـوك أوربـا لـويس وغيـر لـويس
تقـول لهـم يـا «جـوان»(*) أمـة محمـد ... مـن قبـل مـنكم تعـرف التقـديس
وتحط فوق الـرؤوس عيسـى ابـن مـريم ... ســت العــذارى أم قــدر نفــيس
وابنهـا المحبـوب عيسـى اللـى يُحيـى ... الميتـــين ويـــداوى كـــل بئـــيس
القـــدس معبـــد زى مكـــة المكرمـــة ... وخيـر مـا سـارت إليـه العـيس(*)
واســأل حبايبنــا نصــارى المشــارق ... مــن الأزل عايشــين في جــو أنــيس
جيتـــوا بلادنـــا يـــا تجـــار البطـــاطس ... متســـترين بالـــدين يـــا ملاحـــيس
يـا لـويس مـا تمليش علينـا شـروطك ... والاشتراط مايجيش مـن المحـابيس

(*) **جوان:** سيتم التعريف به تفصيلياً فى الجزء الثاني من الكتاب.

(*) **العيس :** كرائم الإبل.

■■ روشتة لكل حاكم

بدخول بيبرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠م بدأت صفحةجديدة فى تاريخ مصر والمنطقة، ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه بأنه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام. ولقد وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق. ففى الداخل توطيد الأمن والقضاء على المناوئين له، وتخفيف الأعباء عن كواهل الأهالى ثم وضع قواعد النظام الإداري فى مصر والشام فى العصر المملوكى، فضلا عن القيام بقدر كبير من الإصلاحات المتنوعة. وفى الخارج صد أخطار المغول والصليبيين عن بلاد الشام ونشر نفوذه على الجزيرة العربية وبلاد النوبة.

والواقع أن أهم ما امتاز به بيبرس في حكمه أنما هو الحزم واليقظة؛ فقد عرف عنه حزمه الفائق الذى يصل أحيانا إلى نوع من الشدة والقسوة، كذلك اشتهر عن بيبرس يقظته التامة حتى إنه أشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة في شئون دولته الواسعة، وتفسر غالبية المؤرخين هذا السلوك من جانب بيبرس برغبته في إقرار العدالة وخوفه من أن تتعرض رعيته لظلم الحكام. فالمؤرخ أبو المحاسن يقول "...وكل ذلك من كثرة عدله وإنصافه للرعية والنظر في أمورهم وإنصاف الضعيف من المستضعف والدفاع عنهم من العدو المخذول رحمه الله وعفا عنه..." كذلك يذكر المؤرخ نفسه أن بيبرس كره أن يسكن أمراؤه داخل القاهرة خوفا من أن يقوم أتباع الأمراء ومماليكهم وحواشيهم بإنزال المظالم بالرعية، فأنشأ للأمراء دوراً كثيرة خارج القاهرة.

وهكذا يبدو من واقع ما ذكره المؤرخون أن بيبرس توخى العدل في حكمه، وربما كانت رغبته في إقرار العدالة هى التى دفعته إلى الخروج متنكرا بين حين وآخر للوقوف على أحوال رعيته وتفقد

شئونهم، ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أن بيبرس قام سنة ١٢٦٤م بإحدى جولاته التفتيشية في إقليم الغربية " فصار يسير منفردا في خفية ويسأل عن والى الغربية وعن سيرة نوابه، فذكرت له سيرة سيئة، فقبض عليه وأدبه وأقام غيره ". وقد جاء فى السيرة الشعبية التى كتبها بيرم التونسى أن بيبرس بدا مهموما بعد أن توج سلطانا مباشرة فسأله أحد أصدقائه الشعبيين عن السبب فأنشأ بيبرس يقول.. صلوا على طه الرسول:

لما بقيت سلطان بدأت متاعبى ... وبقيت أفكر فى هموم وهموم
مسئول أمام الله عن كل مظلمه ... يحس بيها فى البلد مظلوم
مسئول عن الطفل اليتيم اللى خده ... يبات بكف معلمه ملطوم
مسئول عن العامل إذا طاح وانكسر ... يبات ليلتها من عشاه محروم
مسئول أنا السلطان عن كل أرمله ... في العيد ولادها ما تلاقي هدوم
إذا الجنود ضربوا وشتموا الرعايا ... مسئول عن المضروب والمشتوم
اللى يظن الملك نعمه وسعاده ... يا ناس ما هو إلا جهول وغشوم
اللى تولى حكم الناس يا غلبه ... مهما عدل فيها يبات مذموم
وانا استلمت الملك والملك لله ... ولسه فوق راسى سُحب وغيوم
أعداء قريبه في بلادي وملتي ... وأعداء بعيدة من التتر والروم
الاثنين أجاهدهم ومالي مساعد ... في الدنيا غير الواحد القيوم

■■ دمشق أم العواصم

بعد تولى السلطان بيبرس أمور السلطنة، تمرد عليه الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى استاء لمقتل قطز"وأنف من طاعة بيبرس"، وقد أخذ سنجر الحلبى يمكن لنفسه بسرعة فى دمشق، فدعا لنفسه فى خطبة الجمعة، وتلقب بالملك المجاهد، ووضع اسمه إلى جانب اسم الظاهر بيبرس على النقود،ثم أخذ يستعد لما عساه أن يتعرض له من هجوم من جانب بيبرس فأسرع فى عمارة قلعة دمشق "وجمع لها من الصناع وكبراء الدولة والناس وعملوا فيها حتى عملت النساء "، وفى تلك المرحلة وصل رسول الظاهر بيبرس يطلب منه تقديم الطاعة للسلطان الجديد، فوجد الرسول أن الأمير سنجر قد تسلطن فى دمشق، وعندئذ عاد الرسول إلى مصر.

وتحكى السيرة الشعبية أنه عند استعراض سجل أبراج الحمام الزاجل ذات يوم من ذاك الوقت وجد أن الحمامة الواردة من دمشق تحمل رسالة من صديقه " النقيب حسون " - من وقت أن كان بيبرس يعيش في دمشق -ولما قرأها وفهم فحواها قبلها وطواها، واستدعى جماعة من القادة وكبار العسكر، وعندما امتلأ بهم البهو أخرج رسالة حسون، ولما كانت تحتوى على تعابير ظريفة أخذ يقرأ ويقول.. صلوا على طه الرسول:

من النقيب حسون ويدعى أبو على ... والمحتكم فى البحصه والميدان(*)

إلى الفتى بيبرسسبع الفوارس ... اللى النزاهه خلته سلطان

دمشق فيها اليوم عجيبة العجايب ... طرأت عليها آخر الأزمان

(*) **البحصه والميدان :** منطقتان بدمشق.

طول الزمان كانت عروس المداين ... أيام بنى العباس أو مروان
يا للعجب جالس على كرسى مُلكها ... ألعوط ما ينفع غير صبى دكان
ملبساه أمه الزبون المقمط ... ومِحزماه أمه على القفطان
وفى طريقه يشترى الهيطاليه(*) ... ويقزقز الفستق كما الصبيان
وعالبيوت يهجم ويطلب أتاوه ... ولا يفوت مشلول ولا عيان
دمشق يا محمود بايته تعاتبك ... وانت اللى تاركها لكل جبان
ودمشق يا محمود أم العواصم ... من أوجب الواجبات حِماها يُصان

وعلى الفور سير السلطان بيبرس جيشا بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار إلى دمشق لإخضاع سنجر الحلبى، ولجأ إلى حيلة ذكية حتى لا يشعر أحد بأن هذا الجيش خارج للقتال فيأخذ سنجر حذره ويستعد له، وكانت الحيلة هى أن تخرج العساكر بشكل غير منظم ولا يبدو عليهم أنهم مستعدون للقتال وليس معهم زاد أو مياه للشرب وكأنهم خارجين لمناورة قريبة، وفى الوقت نفسه تم تجهيز كل ما يلزم

(*) **الهيطاليه:** نوع من الحلوى.

للقتال على بعد ٣٠ كيلو مترا من القاهرة، ليأخذه نصف عدد العساكر ويستمر فى السير إلى دمشق، ويعود النصف الثانى على القاهرة فيعتقد الناس بأن الجيش قد عاد ولا نية للقتال.

ثم أرسل السلطان بيبرس رسالة إلى صديقه حسون يخبره فيها بأن الجيش فى طريقه لتأديب سنجر الملعون، وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

من الفتى محمود بيبرس المغازى ... إلى صديقه للأبد حسون

أنت وانا يا حسون عقدنا الصداقه ... يوم المبارزه فى جبل قاسيون(*)

وقلنا من يخدم عشيرته وأمته ... لله غيره فى الرجال ما يكون

خرج اللعين سنجر يخيب جلالكم ... على الأدب والشرع والقانون

دمشق يحسبها غنيمه محضره ... لحد ما ييجى ياخدها الدون

وإذا خلا المفتون فى الأرض وحده ... سحب السلاح واتنمرد المفتون

جيوش علاء الدين فى البر زاحفه ... جايه تؤدب سنجر الملعون

(*) جبل قاسيون : جبل يطل على مدينة دمشق.

■■ ما جرى لبغداد

إن الباحث فى تاريخ السلطان الظاهر بيبرس والذى يتتبع حروبه يكتشف حقيقة كبرى، هى أنه لايمكن وضع خط فاصل بين حروبه ضد الصليبيين وحروبه ضد المغول؛فالواقع أن الظاهر بيبرس كثيرا ما كان يحارب الطرفين فى وقت واحد، أو يخرج لحرب أحدهما فيخوض غمار الحرب ضد الآخر.

عندما شعر الصليبيون فى عكا بضعف مركزهم أمام السلطان بيبرس، أرسلوا إليه فى طلب الصلح، وتم عقد الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات. ويبدو أن هذا الصلح حرم "أبغا" والمغول من حلفاء مخلصين، الأمر الذى جعل أبغا ييئس من مواصلة الحرب ويفكر هو الآخر فى طلب الصلح مع بيبرس مرة أخرى بعد أن رفض بيبرس ذلك من قبل.وكان أن أرسل أبغا بعض الرسل إلى السلطان بيبرس بغية جس النبض فى موضوع الصلح فأكرم السلطان وفادتهم، وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه إلى أبغا ومعهما الهدايا والخلع. ويبدو أن أبغا أراد أن يقوم ببعض مظاهرات عسكرية على حدود الشام ليستعجل بيبرس فى الصلح؛ فتحرك المغول على حدود الشام سنة ١٢٧٢م وفى الوقت نفسه أرسل أبغا رسله إلى الشام لطلب الصلح. وفى تلك المرة أهمل بيبرس رسل المغول " ولم يحتفل بهم"؛ وقد طلبوا أن يذهب الأمير سنقر الأشقر إلى الشام لطلب الصلح،ثم عادوا ونقضوا كلامهم فقالوا بل " يمشى السلطان أو من يكون بعده فى المنزلة إلى أبغا لأجل الصلح". وعندئذ رد عليهم بيبرس قائلا: "بل أبغا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته". واختار بيبرس أن يستعرض قوته أمام الرسل فأمر جنوده فلبسوا عدد الحرب ولعبوا فى الميدان خارج دمشق والرسل تشاهد ذلك.ولم يكد رسل المغول ينصرفون من عند السلطان بيبرس، حتى جاءت الأخبار بإغارة جيوش أبغا على

"البيرة" - وهى قلعة هامة على نهر الفرات- وأنهم نصبوا المنجانيق لمهاجمتها واتخذوا كل الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها عبر الفرات. وكان أن أسرع السلطان بيبرس لإنقاذ البيرة ومعه بضع سفن حملت على ظهور الجمال للاستعانة بها على عبور الفرات. وقد أظهر الفرسان المسلمون بزعامة بيبرس شجاعة نادرة، فألقوا بأنفسهم فى مياه الفرات وساقوا فيها عوما الفارس إلى جانب الفارس وهم متماسكون بالأعنة، ومجاديفهم رماحهم. وكان أول من وصل إلى البر الشرقى للفرات هو السلطان بيبرس نفسه، فصلى ركعتين شكراً لله، وتحركت أريحيته وفاضت قريحته وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول :

بجاه رسول الله يا رب أسألك ... تجعل خطانا فى سداد ورشاد
أنا فى طريق دايساه جيوش الصحا ... به ما أكرم الأجناد والقواد
ابن الوليد خالد وسعد المدينة ... عرب سليلهم طارق ابن زياد
أنا كل ما أرجوه من النصر يحصل ... ببركة الأسلاف الأجداد
إلى وحوش الأرض جردت سيفى ... يا رب واجعلنى لهم جلاد
أوغاد بنى الإنسان تتعر منهم ... وشويه فيهم كلمة الأوغاد
جماد من الصوان قُدت قلوبهم ... يخزى من الله اللى قلبه جماد
ما انساش ولا تنسى البرايا جميعها ... اللى جرى للعاصمة بغداد
بالمسلمين فعلوا مآسى فظيعة ... من وصفها تتفتت الأكباد
أنا للتتر لو كانوا كالنمل فى العدد ... أو كانوا من فوق السحاب جراد
أولاد جنكيز خان بقوه من الله ... أجعلها من فوق التراب رماد
تسمع بها الأجيال ليوم القيامه ... كما سمعنا عن ثمود وعاد

بعد ذلك قاد السلطان بيبرس عساكره ضد المغول فأنزلوا بهم الهزيمة وقتلوا وأسروا كثيرين منهم. وفى الوقت نفسه حرص بيبرس على ان يستخدم شيوخ العرب فى العراق ليكونوا عينا له على المغول، ويذكر المقريزى أن بعض هؤلاء الشيوخ من هيت والأنبار والحلة والكوفة وفدوا على بيبرس، فأنعم عليهم وأجزل لهم ليحيطوه علما بتحركات التتار.

■■ يا نيل.. من الجنة منبعك

شهد عصر السلطان الظاهر بيبرس نشاطا اقتصاديا واسعا فى ميادين التجارة والزراعة والصناعة، وقد ظهرت آثار هذا النشاط الاقتصادى واضحة فى الحياة الاجتماعية فى مصر، فضلا عن أن الثروة الناتجة عن ذلك النشاط عبرت عن نفسها تعبيرا عمليا فيما شيده السلطان الظاهر بيبرس من قصور وجوامع ومدارس وخانات وأسبلة... وغيرها من المنشآت التى مازالت بقاياها قائمة حتى اليوم تشهدبما وصلت إليه الحضارة فى ذلك العصر من رقى وسمو.أما في مجال التجارة فقد شهدت مصر نشاطا تجاريا واسعا حتى صارت تمثل الطريق الرئيسى لتجارة الشرق، والمركز التجارى الكبير الذى يقصده تجار الغرب الأوروبى لشراء ما يلزمهم من بخور وتوابل من محاصيل الشرق. وفى مجال الصناعة فقد وصلت إلى درجة فائقة من الجودة والدقة تشهد

بذلك البقايا والآثار التى ترجع إلى هذا العصر. ولم تقتصر المهارة الفنية للعمال والصناع على ما خلفوه من صناعات دقيقة في الأسلحة والزجاج والخزف والنسيج والحلى المعدنية وغيرها؛ وإنما ظهرت أيضا في الفنون الكبرى كالعمارة والتصوير والنحت. وحسبنا ما نلمسه في جامع السلطان بيبرس بعقوده المحمولة فوق أكتاف وأعمدة من الرخام وأبوابه المزينة بزخارف جميلة وقبته الكبيرة الواقعة فوق المحراب.وقد جاء فى السيرة الشعبية أن السلطان بيبرس طلب من وزيره زين الدين أن يعلن على المنابر إعفاء الناس من الضرائب والمكوس لمدة خمس سنوات، وعندما سأله الوزير من أين نأتى بالمال اللازم للصرف على شئون الدولة، أجابه السلطان بأنه لن يأخذ فلوسًا من الخياط ولا النجار ولا الحداد ولا الصياد ولا الزارع ولا التاجر، ولكنه سوفيأتى بالخير من نهر النيل، وفى هذا المقام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

صدق اللى قال يا نيل من الجنه منبعك ... والميا هى أصل كل نعيم
كنوز على الشطين وهبها لخلقه ... كريم ولا غيره يُعد كريم
يمر فوق الطين ويعود لنا دهب ... خيره على كل البرايا عميم
عجبى على بلدان يمر عليها ... النيل ونلقى فوقها مظاليم
أو ينوجد مديون ضاقت مذاهبه ... فى المحكمه ماسك رقبته غريم
أو أرمله فى الليل نسمع نواحها ... ويتيمه تبكى جنبها ويتيم
أراضى فوقها النيل جنه هديه ... لو كان حاكمها فى السياسه حكيم
يا نيل أنا بايدى اللى رايح أقسمك ... على الأراضى كلها تقسيم

كما حرص الظاهر بيبرس على العناية بالزراعة وذلك بتوفير الماء لرى الأرض، الأمر الذى دفعه إلى بناء كثير من القناطر والجسور، ومن أهم القناطر والجسور التى أنشأها بيبرس تلك القائمة على بحر أبى المنجا والتى وصفها المقريزى بأنها "أجل قناطر أرض مصر " ولا تزال بقايا هذه القناطر باقية حتى اليوم وإن كانت غير

مستعملة بسبب تحويل مجرى الماء. وهذا عدا قنطرة منية السيرج وقنطرة القصير وقنطرة خليج الإسكندرية وقنطرة شبرا منت وغيرها. وثمة قنطرة أنشأها السلطان بيبرس على الخليج المصرى، نسبت إليه فسماها ابن دقماق " القنطرة الظاهرية " وإن كان اسمها الشائع فى المراجع هو "قنطرة السباع" لأنه وضع عليها تماثيل لسباع من الحجارة تشير إلى شعار السلطان بيبرس نفسه.

كما اهتم السلطان الظاهر بيبرس بتطهير الترع وحفر الخلجان وإصلاحها، فحفر خليج الإسكندرية "وكان قد ارتدم بالطين " وبحر أشمون طناح " وكان قد عمى " وبحر الصماصم (الصمصام) بالقليوبية وخليج سردوس بالشرقية، وأصلح بحر دمياط، هذا عدا عدد آخر كبير من الترع حفرها بيبرس ودأب على حفرها حتى يروى "أبو المحاسن " أنه حفر في ترعة أبى الفضل وحدها ألف قصبة.

■■ الشجاعة لا تقصر العمر

أثنت جميع المراجع التاريخية على شجاعة الظاهر بيبرس، حيث كانت شجاعته هى صفته البارزة، وهى الصفة التى جعلت المعاصرين له يعجبون به وبشخصيته ويجعلون منه بطلا يتناقلون سيرته ويروونها ويتحدثون بها دائما دون ملل أو سأم. وزاد من وقع شجاعة بيبرس فى نفوس معاصريه أنها ظهرت فى وقت كان المسلمون أشد الناس حاجة إلى زعيم شجاع يستطيع مواجهة خطر الصليبيين من ناحية وخطر المغول من ناحية أخرى. فالمؤرخ أبو المحاسن يصف بيبرس فيقول "كان رحمه الله ملكا شجاعا، مقداما غازيا، مجاهدا مرابطا، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه ".

وقد ذكر المؤرخون أن بيبرس توخى العدل فى حكمه؛ وربما كانت رغبته فى إقرار العدالة هى ما دفعه إلى الخروج متنكرا بين حين وآخر للوقوف على أحوال الرعية وتفقد شئونهم؛ فإذا صادف خللا أو تهاونا عاقب المسئولين عن ذلك التهاون والخلل فى حزم. وكان أحيانا يرتدى أسمالا بالية حتى لا يعرفه أحد ويتنقل من مدينة إلى أخرى ليتعرف على أخبار الولاة وسياستهم فى الحكم. وما كان ليقوم بذلك لو لم يكن رجلا شجاعا لا يعرف الخوف.

وقد جاء فى السيرة الشعبية أن أحد أصدقائه الشعبيين(يدعى عتمان ابن الحلوة) خاطبه معاتبا ودار بينها الحوار التالى :

عتمان: مش ألف مره قلت لك ما تخرجش لوحدك ؟

بيبرس: اللى معاه ربنا ما يبقاش لوحده يا عتمان.

عتمان: آمنت بالله لكن ربنا سبحانه وتعالى قال خذوا حذركم.

بيبرس: يعنى هيجرى لى إيه يا عتمان.. هاتقتل ؟

عتمان: ولا حاجه.. انت أحسن من مين ؟

بيبرس: صحيح.. مانيش أحسن من الخليفة عمر ابن الخطاب اللى ضربه أبو لؤلؤة العجمى بالخنجر.. ولا أحسن من الإمام على اللى ضربه عبد الرحمن ابن ملجم بالساطور فلق دماغه نصفين ثم أنشأ بيبرس يقول.. صلوا على طه الرسول :

عمر الشجاع ماتقصروش الشجاعه ولا الجبان بالجبن عمره يطول
لو عشت يا «عتمان» بالخوف والحذر وخفت غير الله أعيش خجول
واللى يسير فى سكون يضمن سلامته عن اللى يمشى فى حرس وطبول
أنا لا أريد حاجب ولا جندى أجعله آمن على روحى وهو غول
أنا لا أبالى وانا فى طاعة إلهى فى أيها ساعه أبات مقتول
واللى ينول حظه فى موته سعيده فى جنة الفردوس ياما ينول
ابن الوليد خالد غزى ألف غزوه ومات على فرش الهنا معدول
ياريت فى الميدان ألاقى مُنيتى وانا فى سبيل الله أصول وأجول

■■ خوارج أمة محمد!

تنسب الطائفة الإسماعيلية إلى إسماعيل الصادق، الذى نجح أتباعه فى إقامة الدولة الفاطميةبعد وفاته بعدة قرون. ومن أهم المبادئ التى أقام الإسماعيلية مذهبهم عليها، هو إيمانهم بأن للعقيدة ظاهراً وباطناً ، مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم الباطنية. وقد اشتدت دعوة الباطنية فى فارس والشام بوجه خاص، وبرز من دعاتهم الحسن بن الصباح الذى شيد القلاع المنيعة فى فارس- وأهمها قلعة الموت - ومنها أخذ الباطنية يواصلون دعوتهم وينفذون مؤامراتهم فى العالم الإسلامى فى الشرق. وعندما امتد نشاط الباطنية فى بلاد الشام أضافوا عاملا جديدا من عوامل التفكك فى تلك البلاد على عصر الحروب الصليبية. ذلك أن الباطنية لم يحجموا فى سبيل مقاومة المذهب السنى عن قتل بعض زعماء حركة الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين، بل حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبى نفسه وأصابوه لولا أن أراد الله له النجاة. وزاد من بأس طائفة الباطنية فى بلاد الشام على عصرالحروب الصليبية كثرة ما امتلكوه من حصون.ويبدو أن عداء الباطنية الشديد لأهل السنة جعلهم يتقربون إلى الصليبيين بالشام ضد الأيوبيين ثم المماليك، وفى الوقت نفسه رأى الصليبيون فى الباطنية قوة طيبة يمكن محالفتها والاعتماد عليها فى الحد من بطش الأيوبيين ثم المماليك من بعدهم.لذلك دأبت القوى الصليبية ببلاد الشام على إرسال الهدايا إلى الباطنية اتقاءً لشرهم من ناحية وطمعا فى تأييدهم من ناحية أخرى.

ومن ذلك نرى أن الأمة الإسلامية انقسمت إلى شيع وأحزاب، فصارت سنة وشيعة ومعتزلة، وتحولت الفرق الدينية إلى أحزاب سياسية تطلب السلطة وتقبل على حطام الدنيا، وفى هذا ينشد الشاعر ويقول.. صلوا على طه الرسول:

أمـــة محمـــد لـــما كانـــت موحـــده ... ملكـت مـا بـين الصـين والأسـبان
والمسلمين كانت مـن العُـرب والعجـم ... سـيدها الإلـه الواحـد الـديان
أعـوان متجهـه إلـى قصـد واحـد ... وقانونهـا وإمامهـا القـرآن
الله يجـازى المجـرمين الخـوارج ... مثل ابن مُلجِم[1] واللعين عمران[2]
ومـن الأزل قـايم تقـم القرامطـه ... الخالـدين فى أسـفل النيـران
دخلـوا علـى الحِجـاج فى سـاحة الحـرم ... وذبّحـوا فـيهم كـما الخرفـان
حتى الحجـر لاسـود شـالوه مـن مكانـه ... إلـى بلادهـم بـؤرة الشـيطان
والحشاشـين[3] اليـوم قـاموا عصـابه ... تنسـب إلـى الإيـمان ولا إيـمان
تنسـب لإسـماعيل والله أعلـم ... ولجعفـر الصـادق عظـيم الشـان
يـا مجـرمين أشـرار بالكـذب ينتمـوا ... إلـى نسـب سـيد ولـد عـدنان
وحاشـا للأشـراف ترفـع سـيوفها ... عالمسـلمين بـالزور والبهتـان
حفيـد رسـول الله السـيد الحسـن ... تـارك ميـراث جـده للنبـى مـروان
والأدعيـاء اليـوم شـبعوا مجـازر ... فى المسـلمين فى أحلـك الأزمـان

وكان من المستحيل أن يرضى بيبرس عن وضع الإسماعيلية الباطنية فى بلاد الشام، لأن المماليك كانوا سنيين فاعتبروا الإسماعيلية زنادقة، فضلا عن العلاقات الطيبة التى ربطت الإسماعيلية بالصليبيين. لذلك بدأ بيبرس بفرض ضرائب باهظة على الهدايا التى اعتاد الصليبيون أن يبعثوا بها إلى شيخ الباطنية، وذلك " إفسادا

(١) **ابن مُلجِم** : قاتل سيدنا على بن أبو طالب.
(٢) **عمران:** عمران بن حطان الذى مدح بن ملجم لقتله سيدنا على.
(٣) **الحشاشين:** طائفة إسماعيلية انفصلت عن الفاطميين.

لنواميس الإسماعيلية وتعجيزا لمن اكتفى شرهم بالهدية ". ولم يكن عسيرا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصونهم ببلاد الشام حصنا بعد آخر، حتى استولى عليها جميعا، وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام.ولقد ارتكبت هذه الطائفة أفعالا مشينة ضد المسلمين، يصورها الشاعر فيقول:

كل الكباير والذنوب والمعاصى ... أنا شفتها بالعين مع اللى شاف
ما شفت أبشع من ذنوب الأسافل ... اللى يعيشوا واسمهم أشراف
حاشا لعتره من سلالة محمد ... مع الفرنجه يصبحوا أحلاف
لبسوا تيجان الملك من يد كافر ... أحفاد بنى هاشم وعبد مناف
عصبه من الهلافيت يبات كل منهم ... نهاب فى بيت المسلمين خطاف
وضعوا تيجان المملكه فوق رؤوسهم ... اللى رؤوسهم حقها الأخفاف(*)
عصبه من الهلافيت من الناس ماتستحى ... أبدا ولا من ربنا ما تخاف
مهما اختفوا تحت التيجان لازم الزمن ... يكشف ستورهم والزمن كشاف

(*) **الأخفاف** : جمع خف وهو ما يلبس فى الرجل من جلد رقيق.

■■ العفو لمن يستحق العفو

استطاع الظاهر بيبرس بحكمته ودهائه السياسى، التغلب على المصاعب والمؤامرات التى واجهته في بداية حكمه، وإذا كان قد لجأ إلى التسامح مع أمراء المماليك الذين خرجوا عليه، فانه لم يكن مستعدا لاتباع هذه السياسة مع غيرهم إذا أحس بخطر يهدد كيانه.

من ذلك أن بيبرس كان لايزال متخوفا من بعض بقايا البيت الأيوبى بالشام، وهم الذين عز عليهم أن ينتقل الحكم والسلطنة إلى مماليكهم الذين حرموهم من حقهم الموروث في السلطة، وزاد من مخاوف الظاهر بيبرس أن الملك المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك استعان ببعض جموع الأكراد الذين فروا إليه من وجه المغول، وأخذ يُغير على الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة للسلطان الظاهر. وعندما أحس الملك المغيث الأيوبى بنية بيبرس في الانتقام أسرع إلى الاعتذار وطلب العفو عنه وعن حلفائه من الأكراد، فعفا بيبرس عنهم جميعا، ووفد هؤلاء الأكراد إلى مصر حيث أحسن السلطان معاملتهم. ولكن بيبرس كان لا يستطيع الاطمئنان إلى شعور بنى أيوب – وبخاصة المغيث عمر – فخرج من مصر سنة ١٢٦٣م وفى عزمه القضاء على ذلك الخطر. وكان أن أسرعت أم المغيث لمقابلة بيبرس عند غزة لتشفع فى ولدها وتطلب له الأمان. وتذكر السيرة الشعبية أن أم المغيث عمر حين دخلت على السلطان بيبرس أنشأت تقول.. صلوا على طه الرسول:

أصلى على نور الوجود محمد اللى بُعث رحمه لكل الناس
واهدى تحياتى إلى الفارس البطل اللى على عروش الجبابره داس

بيبـــرس يـــا محمـــود أنـــا فـــرع عـــالى ... من دوح صلاح الدين[*] شـديد البـاس
أم المغيـــث اللـــى منايـــا أشـــوفه ... أسـير يـديك يـا للـى يـديك تتبـاس
لعـب الشـيطان بـابنى ولخـبط كيانـه ... ويامـــا يبلـــغ رغبتـــه الخنـــاس
خـلاه مـايفرق بـين الطـين والـدهب ... والرجـل يحسـبها تسـاوى الـراس
جيتـك أيـا محمـود في ابنـى شـفيعه ... وانت اللى عندك أشرف الإحساس
والرحمه فـوق العـدل يـا للـى حكومتـك ... الرحمـــه فيهـــا بالرعايـــا أســـاس

ثم دار بينهما الحوار التالى:

بيبرس: اتفضلى استريحى.

أم المغيث: لما تطمن قلبى وتقول لى انك صفحت عن ابنى.

بيبرس : أصفح عن واحد متحالف مع التتر ولافرنج عشان يساعدوه فى الهجوم علينا؟.

(*) **من دوح صلاح الدين :** منسبة لصلاح الدين.

أم المغيث: هادا طفل يا بيبرس، لولا ما هو طفل ما كان فعل هالفعله.

بيبرس : هههه ماتآخذنيش أنا بضحك على قلب الأم اللى ابنها يبقى ملك ويحصل لاربعين سنه وتقولى عليه لسه عيل.

أم المغيث: لو كان ما هو عيل كان أدرك إن دولة بنى أيوب غرب نجمهم واتخربت ديارهم، وكان كفايه عليه مدينته اللى قاعد فيها.

بيبرس: يا أمى الحكايه ما هياش حكاية نجم يغرب ونجم يشرق، ربنا عز وجل هو اللى بيرفع ويخفض، وانا مش عدو بنى أيوب أهو قدامكم الملك شيركوه من صميم العائله الأيوبيه ومتسلطن على حماه لكن راجل يحس بشعور الأمه الإسلاميه، طلب منه سنجر الحلبى يساعده بعسكره فى الهجوم على مصر رفض، وكتب لنا الراجل انه مستعد لمشاركتنا فى جميع الأحوال، راجل زى دا أضعه فوق راسى ولايهمنيش إن كان أيوبى أو فاطمى، ولا يهمنيش إن كان هو اللى تابعنى وللا أنا اللى تبعه، ليه المغيث ما يعملش زيه ويكتفى بالسلطنه على مدينه عظيمه زى الكرك؟. ماحناش عايزينه يساعدنا، كفايه ماينضمش لأعداءنا من الإفرنج والتتر اللى لو انتصروا علينا هيكافؤوه بقطع رقبته.

أم المغيث: صدقت يا ابنى صدقت.. اللى حوليه ما فيهم حداً يقول هذا الكلام، اللى حواليه مماليك زُعر قباضيات نهارهم كله يهرجوا بالديوك ويناطحوا بالكباش.

بيبرس : ماهى دى المعارك الحربيه اللى بيتشطروا فيها.

أم المغيث: ها انا حكيت لك وانت سيد من يفهم وسيد من يغفر ويسامح.

بيبرس : يعنى أرجع تانى بجيشى؟.. مستحيل.

أم المغيث: ما بريدك ترجع بجيشك، مانى مجنونه أنا مرات ملك وبنت ملك وأم ملك، أنا أجيب لك المغيث من ودنه لحد هون يبوس رجليك وتضربه بصرماتك.

بيبرس : دا حل كويس ييجى معزز مكرم مدينة بيسان.

أم المغيث: أسرع ما يمكن.. الله يرضى عليك يا بيبرسالله ينصرك يا بيبرس.

وتظاهر السلطان بيبرس بالموافقة على طلبها، وأعلن عفوه عن المغيث، ولكنه قبض عليه بعد ذلك وأرسله إلى القاهرة حيث اعتقل بقلعة الجبل.

ويبدو أن السلطان بيبرس كانت لديه أسباب لعدم الوفاء بالعفو عن المغيث، فمن المؤرخون من قال إن المغيث راود امرأة بيبرس عن نفسها قبل أن يلى بيبرس منصب السلطنة،ومنهم من قال إن الشهود قد شهدوا على أن المغيث كان متواطئا مع المغول ضد المسلمين وأنه أراد أن يستعين بالمغول للقضاء على الظاهر بيبرس والمماليك واسترداد سلطان بنى أيوب.

وتحكى السيرة الشعبية أن الظاهر بيبرس أراد أن يعفو عن بعض المعتقلين لديه، ومن ضمنهم المغيث عمر، وتناقش فى هذا الأمر مع وزيره زين الدين، فأبدى زين الدين تحفظه على الإفراج عن المغيث، وفى هذا المقام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول :

أنا لما صدرى يضيق أصلى على النبى ... اللى على سيرته يفج النور
العقل والوجدان يا محمود يقول لى ... إن المغيث منك يعيش منحور
سليل صلاح الدين سقطت حكومته ... وكان مراده يحكم المعمور
يحكم مداينها وكل مدينه ... فيها قصور جنب القصور قصور
ومن حكم عالهند والترك والعرب ... يملى قصوره بالملاح الحور
مسحت يا محمود خريطة خياله ... ويبات ذليل من غير أمل مأثور
أحلف يمين يا بيبرس عاللى هاقوله ... يمين لا حانث ولا موزور
لو المغيث يلقاك فى ساحة الحرم ... يفلق دماغك حتتين بساطور
ما تحسبوشى يتوب ولو تاب يا بطل ... أنت اللى تعرف توبة الموتور
فى رقبتك تار ماينساه إلى الأبد ... إلا وهو فى التراب مغمور

■■ النخوة النخوة يا رجال!

توجه السلطان بيبرس إلى بلاد الشام فى نوفمبر سنة ١٢٦٩م بعد أن سمع بغارة التتار على الساجور قرب حلب، ووصل إلى دمشق فى شهر ديسمبر من نفس العام. وكان بيبرس قد علم بما كان من اتصالات بين الصليبيين والمغول تستهدف عمل تحالف بين الفريقين ضد المسلمين وسلطنة المماليك. ويبدو أن هذه الاتصالات أدت إلى رفع الروح المعنوية عند الصليبيين ببلاد الشام، فحاولوا الإغارة على "صفد" ولكنهم هزموا شر هزيمة.

ومهما يكن من الأمر، فإنه لم يعد بوسع السلطان بيبرس أن يصبر على جرأة الصليبيين، ففكر فى توجيه ضربة قوية لهم فى شمال بلاد الشام، وبينما هو يستعد لذلك بدمشق فى ربيع ١٢٧٠م، إذا بالأخبار

تصل إلى مسامعه بخروج لويس التاسع ملك فرنسا من بلاده على رأس حملة صليبية جديدة لا يعرف أحد حقيقة مقصدها؛ لذلك خشى بيبرس أن يكرر لويس التاسع محاولته لغزو مصر، فاهتم بإنشاء السفن والشوانى.

وتذكر السيرة الشعبية أن السلطان بيبرس وهو فى قصره بدمشق، استدعى وزيره زين الدين ابن الزبير ليستشيره فيما يشغل باله من أمور فى ذلك الوقت، وهو العمل على تحرير الأسرى المسلمين لدى الصليبيين، الذين يعاملونهم أسوأ معاملة، ومجابهة الخطر الصليبى المغولى، ثم الاستعداد لصد حملة لويس التاسع المرتقبة والتى قيل إنها قادمة على ثلاثين ألف سفينة. وفى هذا المقام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

دول تلاته ومين يدل عليها ... يا بن الزبير قل لى يا زين الدين
الأوله فيها نِحل الأسارى ... المسجونين فى حُوزة الملاعين
أنا أستحى أجلس أمام الموائد ... وأهل دينى أكلهم من طين
أنا أستحى أجعل فراشى وسائد ... والمسلمين فوق التراب نايمين
والتانيه يا ابن الزبير وانت أدرى ... جيوش هولاكو عن قريب جايين
مهما يبيد السيف منهم ويفنى ... أضعافهم يا ابن الزبير باقيين
اليوم فى بغداد فعلوا جرائم ... تِفزع وتجرى منها الشياطين
والشام ويا خوفى على الشام منهم ... ما يخلوا فيها لا عنب ولا تين
والتالته جيش لويس يا وزيرى ... زاحف على تلاتين ألف سفين
راجع إلى دمياط ياخد بتاره ... لما خرج منها بشكل مهين
مين يضرب الإفرنج ويقاوم التتر ... ومين يا زين يفدى الأسارى مين
الله لا غير الله يهدى الحيارى ... الله ولا غيره سند ومعين

على أن الأخبار لم تلبث أن وردت بنزول لويس التاسع فى تونس

وعندئذ لم تفتر همة بيبرس عن مساعدة تونس، فأرسل إلى صاحبها بمسير النجدة إليه، كما كتب إلى عُربان برقة والغرب بالإسراع لنجدة صاحب تونس، وأمر بحفر الآبار فى الطريق ليعتمد عليها العساكر الخارجون من مصر إلى تونس. وقبل أن تكتمل كل هذه الإجراءات وصلت الأخبار إلى مصربمقتل لويس التاسع وتشتت حملته فى تونس؛ وعندئذ أفاق بيبرس من ناحية ذلك الخطر وعاد من جديد يفكر فى أمر الصليبيين بالشام.

■■ رسالة إلى حاكم خائن

بعد أن تولى الظاهر بيبرس أمور السلطنة فى مصر والشام، بدأ بتقوية جبهته الداخلية قبل أن يشرع فى محاربة الصليبيين والمغول ؛ ولذلك أخذ يستميل عامة الناس بتخفيف عبء الضرائب عنهم حيث كان المظفر قطز قد استحدث كثيرامن الضرائب والمكوس ليستعين بحصيلتها على حرب المغول، ومن جملة ذلك أنه فرض على كل واحد من أهل مصر دينارا، كما صار يأخذ ثلث الزكاة وثلث قيمة التركات، فبلغ حصيلة ذلك كله ستمائة ألف دينار فى العام. فلما ولى السلطان الظاهر بيبرس أبطل جميع تلك الضرائب التى استحدثها قطز، وكتب منشوراً بذلك قُرئ على منابر المساجد؛ فسُر الناس بهذا وزادوا فى مظاهر الزينة.

على أن الأمور لم تتم لبيبرس فى سهولة مطلقة، ودون أن يتعرض للثورات المألوفة التى تعرض لها سلاطين المماليك كافة فى مستهل حكمهم، وكان قد كتب إلى الملوك والأمراء والنواب يخبرهم بسلطنته، فأجابوا جميعا بالسمع والطاعة، عدا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى أخذ يمكن لنفسه بسرعة، فدعا لنفسه فى خطبة الجمعة، وتلقب بالملك المجاهد، ووضع اسمه إلى جانب اسم الظاهر بيبرس على النقود. ويبدو أن النجاح المبدئى الذى أحرزه الأمير سنجر بسبب انشغال بيبرس بشئون سلطنته الجديدة فى مصر جعله يتمادى فى أطماعه، فبات يحلم بالسلطنة وركب بشعار السلطنة فى دمشق، بل أن سنجر حاول مد نفوذه على بقية أنحاء الشام، فأرسل إلى الأمير حسام الدين لاجين حاكم حلب يستميله للدخول فى طاعته وأن يكون نائبا لسنجر فيها، ولكن الأمير حسام الدين رفض الاستجابة لسنجر وقال " أنا نائب لمن ملك مصر "، وأعلن طاعته للظاهر بيبرس.

وقد جاء فى السيرة الشعبية للظاهر بيبرس أن الأمير حسام الدين وجه رسالة إلى الخائن سنجر الحلبى يرفض الاستجابة له، وفى الختام أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول.

أصلى واسلم على الزين محمد ... نبى البرايا مقيم العداله
سنجر يا قيافه يا ملك الطرافه ... سيبك من الهيافه واسمع دى المقاله
فى غيبة الأقارب تعمل لى محارب ... وفى يوم الكريهه تنوى الاستقاله
ما أرذلها قباحتك دا العرش اللى تحـ ... ـتك واخده من كلاحتك وأمور الرذاله
عايزنا نساعدك لاجل يتم سعدك ... دا بعدك دا بعدك يا سايق الهباله
فتش عن سوانا يخون الأمانه ... دى لاهى صيانه ولا هى نباله
محمود فى المهمه يتاقل بأمه ... محمود عنده ذمه وانت من الحثاله
وصلتنى رسالتك من عالى جلالتك ... أو واطى هبالتك وأجرك دى الرساله

وكان أن أرسل السلطان بيبرس جيشا إلى دمشق بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار، وتم القبض على الأمير سنجر الحلبى، وأرسل إلى

القاهرة حيث اعتقله بيبرس بالقلعة، حتى أفرج عنه بعد ذلك وقلده نيابة حلب.

وتحكى السيرة الشعبية أنه بعد أن استقرت الأمور لبيبرس استدعى سنجر من السجن وأبلغه بالإفراج عنه ففرح وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

أصلى على المختار اللى شريعته ... أمرت جميع الناس تكون أحباب

بيبرس يا محمود أصل المحبه ... بينى وبينك يوم ما كنا شباب

تصد عنى كل من عاب في حقى ... واصد عنك كل مجرم عاب

وفى الحروب انت عارفنى واعرفك ... لكل منا في النزال أبواب

تقول عليا رزيل ماكدبش قولك ... لكن ما كنت جبان ولا هراب

إذا طمعنا يوم في عرش الممالك ... واحنا فوارس ما علينا عتاب

وإذا خضع يا بيبرس مثلى لمثلك ... لا ينخفض قدره ولا يتعاب

ولما أكون مملوك في جيشك وعسكرك ... ملك الملوك يحسبلى ألف حساب

أنا أخوك في الدين والجنس والوطن ... وكل من فوق التراب تراب

■■ على ظهور الخيل (يبان كل فارس)

قاد لويس التاسع ملك فرنسا الحملة الصليبية السابعة بهدف الاستيلاء على مصر، التى كانت تمثل العقبة الكبرى فى سبيل استرداد بيت المقدس الذى حرره صلاح الدين الأيوبى عام١١٨٧م. ففى مايو ١٢٤٩ أبحر لويس التاسع نحو مصر على متن سفينته الملكية، وتبعته سفن الحملة من ميناء ليماسول القبرصى، وبسبب شدة الرياح جنحت إلى عكا وسواحل الشام نحو ٧٠٠ سفينة تحمل حوالى ٢١٠٠ فارس صليبى فتوقف لويس فى جزيرة المورة اليونانية، ثم أبحرت السفن بعد ذلك إلى مصر، وفى هذا المقام يقول الشاعر:

من الأبابيل تنزلك حجاره ... على الفجار فى لحظه تبيدها
وبجيوش الجراد فى يوم وليله ... يغطى النخل ما يملى جريدها
وبالطوفان تتغير مداين ... فلا تعرف قديمها من جديدها
وأما الزلزله لما تزلزل ... على القارات تتغير حدودها
أما الريح جند الله كانت ... عقوبة عاد مره لا تعيدها
وريح البر ما يبلغ أذاها ... رياح البحر لما الموج يزيدها
عواصف عاد فوق البحر لابيض ... عليك يا لويس ما خلفت وعودها
تشوف بعينيك فوق الموج مراكبك ... بتمرجح وتنزل فى لحودها

وصلت سفن الصليبيين إلى دمياط، وأرسل لويس إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب رسالة يطالبه فيها بالاستسلام، فرد عليه الصالح أيوب يحذره فيها من مهاجمته لمصر، وفى يوم ٥ يونيو١٢٤٩م نزل جنود وفرسان الحملة على بر دمياط، وكان قوام القوات الصليبية

نحو ٥٠ ألف مقاتل وفارس، ونشب قتال شديد بين المسلمين والصليبيين انتهى بتراجع المسلمين، ودخل الصليبيون دمياط بسهولة ودون مقاومة.

وفى أواخر العام نفسه تحركت الحملة باتجاه فارسكور، فى هذه الأثناء توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وأخفت زوجته شجر الدر نبأ الوفاة لحين وصول ابنه توران شاه من حصن كيفا بالعراق، وهكذا تأزم الموقف فى مصر فجأة، فالبلاد أصبحت بدون سلطان، والصليبيون أوغلوا فى الدلتا، وصارت مقاليد الأمور بيد شجر الدر- زوجة الصالح أيوب - والأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ أتابك العسكر.

وكانت الظروف كلها مواتية للصليبيين، فهاجموا معسكر المسلمين فى فبراير ١٢٥٠ م، وسقط الأمير فخر الدين قائد الجيش نفسه فى المعركة قتيلا، وعندئذ اندفع الصليبيون نحو المنصورة، حتى "كادت الكسرة أن تكون".

وقد جاء بالسيرة الشعبية للظاهر بيبرس أن جاسوس الإفرنج "جوان" بعد هذا المشهد وجه رسالة إلى الأمير بيبرس كلها غرور وسخرية وفى نهايتها أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول :

الحرب يا حافيين واسع ميدانها ... وادى «روبرت الكنت» نازل يناجز
واقف روبرت الكنت يطلب نزالك ... يا جند نجم الدين فهل من مبارز؟
على ظهور الخيل يبان كل فارس ... وتحت ضرب السيف يبان كل عاجز
اطلع يا واد يا بيبرس بوس رجل سيد ... ك واركع أمامه يا صبى المخابز
وانت أيا قلاوون يا بوشناب طويله ... يا للى طول عمرك مناكف مناجز
وانت يا بلبان يا واد يا رشيدى ... اخرج إلى الميدان وشد المهامز(*)
وفين شجرة الدر تحضر معاكم ... من قبل ما تكتب في ضمن النواشز
آدى إحنا يا صعاليك جينا بلادكم ... ولا صبح بينا وبينكم حواجز

ولكن الله تدارك المسلمين بلطفه، ووافقت شجر الدر – الحاكم الفعلى للبلاد – على خطة الأمير ركن الدين بيبرس حيث تم استدراج القوات الصليبية داخل مدينة المنصورة ثم خرجت طائفةمن المماليك البحرية بقيادته مع من خرج من العربان والعوام والفلاحين فحملوا حملة زعزعوهم بها وأخذوهم بالسيوف من كل جانب وكذلك يرمونهم بالرماح والمقاليع والحجارة، وسد المصريون طرق العودة بالخشب والمتاريس فصعب على الصليبيين الفرار، وراح بعضهم يلقى بنفسه فى مياه النيل للنجاة فابتلعنهم المياه، وهكذا تبدلت الهزيمة إلى نصر.

(*) **المهامز** : جمع مهمزة وهى سوط أو عصاية ينخس بها الحصان.

وقع كثير من الصليبيين قتلى فى أزقة المنصورة، وحاول من نجا منهم الفرار، ولكن المسلمين لحقوا بهم قرب فارسكور حيث أجهزوا عليهم وأسروا لويس التاسع نفسه ومجموعة من كبار أمرائه وقادة جيشه. ونقل لويس التاسع إلى دار القاضى إبراهيم ابن لقمان أسيراً، وقد بلغ عدد قتلى الصليبيين فى حملة لويس التاسع ما بين ١٠ ألاف و٣٠ ألفا. اشترط المصريون تسليم دمياط وجلاء الحملة عن مصر والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى قبل إطلاق سراح الملك لويس، وكذلك دفع فدية كبيرة له ولكبار ضباطه وجنده.

لويس التاسع

■■ كلام فى الحب

إذا كان مغول فارس بزعامة هولاكو وخلفائه هم الذين أنزلوا الضرر ببلاد المسلمين، فاجتاحوا العراق ودمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم، وأوغلوا فى الشام حتى غزة وعين جالوت فى فلسطين؛ فان هناك فرعاً آخر من المغول (مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية وكان مركزهم بين بحر قزوين ونهر الفولجا) اتخذ سياسة مغايرة تماما، ذلك أن زعيم هذه القبيلة- بركة خان - اعتنق الإسلام، وغضب لما فعله هولاكو وقومه ببلاد المسلمين وبخاصة قتلهم الخليفة العباسى، ولم يلبث أن انتشر الاسلام أيضا بين نسبة كبيرة من مغول القفجاق، مما جعل النفور يشتد بينهم وبين مغول فارس، وفى الوقت نفسه صار مغول القفجاق قوة كبرى تفرح لما يصيبه المسلمون من خير وتألم لما ينزل بهم من شر؛ لذلك فإن السلطان بيبرس رأى فى إسلام بركة خان وقومه فرصة طيبة لاكتساب هذه القوة الإسلامية الجديدة إلى جانبه للوقوف فى وجه مطامع مغول فارس، ولم تلبث أن وفدت رسل بركة خان سنة ١٢٦٣م إلى السلطان بيبرس، ومعهم خطاب منه يقول فيه " فليعلم السلطان (الظاهر) أننى حاربت هولاكو الذى هو من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله تعصبا لدين الإسلام؛ لأنه باغ والباغى كافر بالله ورسوله...". وقد بادر السلطان بيبرس بإرسال الرد إلى بركة خان مصحوبا بالهدايا الثمينة، كما توج السلطان بيبرس علاقته مع مغول القفجاق بزواجه من ابنة بركة خان.

وقد جاء بالسيرة الشعبية أن ابنة بركة خان كانت تسمى"جولسن" وكانت ذات حسن وجمال يخطف الألباب، وحين رآها بيبرس لأول مرة خفق قلبه بحبها وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

بنتك يا بركه خان هدت عزايمى وانا اللى عزمى ياما هد جبال

طفلـه ولا تـدرى مـا تفعـل عيونهـا ... الذابلـــه في القلـــب مـــن أفعـــال
فيهـا جمـال الـروض والـروض مـز ... دهـــر لكـــن عليهـــا هيبـــة الشـــلال
كأنهـــا مـــن نـــور ربـــى خلقهـــا ... وخلـق جميـع النـاس مـن صلصـال
ضـربت عليـا نطـاق سـاحر جعلنـى ... بـــين الســـما والأرض مـــالى مجـــال
الحب جانى منـين يـا بنـت المغـولى ... وانـا طـول حيـاتى في ميـدان قتـال

بركة خان

■■ فى سبيل الله تهون المصاعب

لم تؤد وفاة هولاكو خان مغول فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهدئة الموقف بين المغول وسلطنة المماليك، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحيا نسطوريا، فتزوج من ابنة الإمبراطور البيزنطى باليولوجس، وحرص على أن يدعم صلاته بالقوى المسيحية فى الشرق والغرب جميعًا للانتقام من المسلمين فى بلاد الشام ومصر.

على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والخارجية عند قيام أبغا فى الحكم كانت لا تشجعه على الاستمرار فى معاداة المسلمين فى مصر والشام، بدليل انه أرسل الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح، ولكن بيبرس – شأنه شأن أى حاكم مسلم آنذاك– كان لا يرضىلنفسه أن يضع يده فى يد المغول، وهم الذين مزقوا العالم الاسلامى وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام.

ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة للصلح، أعاد أبغا سنة ١٢٦٨ يكرر طلب الصلح، ولكن بيبرس رفض مبدأ الصلح، فلم يبق لأبغا إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمحالفة الصليبيين؛ فأغار على الساجور بالقرب من حلب، واتفق مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على بلاد الشام.

وتذكر السيرة الشعبية أن السلطان بيبرس استيقظ لصلاة الفجر فى أحد الأيام من ذلك الزمان، وبعد الصلاة سمع أبا سليمان المجذوب يلقى الكلام على العوام وفيه ما فيه لذوى الأفهام، وها هو يترنم بهذه الأبيات وترد عليه الرجال والبنات:

جيـــوش بعيـــد وكُتـــار ... مـــــن تـــــركمان وتتـــــار
علـــى جيـــوش كفـــار ... يـــــارب يـــــا ســـــتار
مـــن الشـــرق أهـــم جـــايين ... عـــــــالغرب متحـــــــدين
متخـــــالفين فى الـــــدين ... وهيصـــــبح وا أصـــــهار
الكنـــب خـــان أبـــو عـــين ... عـــوره يـــا خـــدها ومـــين
وأبـــــو شـــــنب شـــــبرين ... بنـــت الخواجـــه بشـــار
أجـــــلاف ورا أجـــــلاف ... عالمســـــلمين أحـــــلاف
والمســـلمين مـــا تخـــاف ... إلا إلـــــــــه جبـــــــار
جـيش التتـــر أهـــو خـــاب ... فى عـين جـالوت يـا احبـاب
وجـيش لـــويس أهـــو داب ... فى طـــين وميـــه عكـــار

شعار السلطنة فى عهد بيبرس

وعلى الفور أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند، وأمره أن يقيم فى أطراف بلاد الشام على أهبة الاستعداد لصد المغول. ولم يكتف بيبرس بذلك وإنما خرج بنفسه فى جيش جرار لملاقاة العدو.

وتذكر السيرة الشعبية أن بيبرس نظر إلى الجيش الذى يقوده فتحركت أريحيته وفاضت قريحته وقال ما يقوله الأبطال:

ألا فى سبيل الله تهون المصاعب ... ولا أمر يصعب فى سبيل الله
الأرض من شرق لغرب يلفها ... فى خطوه واحده كل من ولاه
والشامخات من الجبال الرواسى ... الواعرات تدوب تحت خطاه
و البحر يجمد لو تمر الكتايب ... عليه مجاهده فى سبيل رضاه
وتحت صهد الشمس والصخر دايب ... يمشى المجاهد والنسيم وياه
والذل والخسران جعلهم إلهى ... سيما تميز كل من عاداه
حاشا إلهى قدرته تخلق التتر ... ولا هو يخلق ضدهم حاشاه
يا رب تجعلهم لسيفى غنيمه ... واللى توفى أنت تتولاه
جعلت جنكيز خان فى أسفل جهنم ... وابنه هولاكو فى السعير مسواه
تتر إذا الشيطان وصفوه باسمهم ... وهو المخلد فى الجحيم يأباه

■■ لا لتوريث الحكم

سادت فى عصر المماليك فكرة " الخداشة " أى الزمالة، فهم جميعا زملاء لا فضل لمملوك على آخر إلا بما يتمتع به من مواهب وقوة وصفات خاصة، وقد أدت هذه الفكرة بالمماليك إلى رفض مبدأ وراثة الملك. وإذا وجدت حالات نجح فيها بعض سلاطين المماليك فى تأسيس بيوت احتفظت بالحكم مدة طويلة - كما حدث فى بيت قلاوون - فإن هذه الحالات كانت خروجاً عن تلك القاعدة وذلك المبدأ.

إلا أن غريزة الأبوة لدى السلطان بيبرس غلبت عليه فأراد أن يضمن توريث الملك من بعده لابنه " السعيد "، وربما اغتر السلطان بيبرس بما حققه من أعمال وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك , فظن أنه حقق لنفسه ولبيته من المجد ما يكفل لابنه تولى الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء

وقد احتفل بيبرس سنة ١٢٦٤ م بسلطنة ابنه الملك " السعيد " احتفالا كبيرا، فأركبه بشعار السلطنة وخرج السلطان بنفسه فى ركابه ماشيا على قدميه، وقد زينت القاهرة أحسن زينه. وبعد ثلاثة أيام جمع بيبرس الأمراء والقضاة والفقهاء وقرئ تفويض عهد السلطنة للملك السعيد من بعده، وجاء فيه "... كانت شجرتنا المباركة قد امتد فرع منها تفرسنا فيه الريادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو... فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد وليشاركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد...".

وقد جاء بالسيرة الشعبية أن بيبرس توجه لابنه قائلا " اسمع يا بنى التركه اللى هاسيبهالك من بعدى تركة كبيرة، بس مش كبيره بالجواهر والكنوز، كبيره بالأعباء والمسئوليات، الأمه دى بحالها أمانه فى رقبتك، ولو عيل صغير وقع فى الطريق يسألك ربنا ليه ماسوتشى الطريق قدامه.. اللى يجرى ورا الحكم من غير ما يقدر المسئوليه، هو

زى الفراشه اللى بترمى روحها فى اللهب وفاكراه مجرد لهب وبريق، وهو فى الحقيقة دمار وحريق.. الإمام العادل عند الله سيد الشهداء ومن السبعه اللى يظلهم الله بعرشه يوم لا ظل إلا ظله،ثم أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

أحكى وأبدى يا «سعيد» الكلام ... واصلى عالهادى نبينا الأمين
مرادى أشرح لك تاريخى بكلمه ... تلم من عمر السنين خمسين
اليتم والغربه بدايه حياتى ... ونهايتى أهو سلطان على المسلمين
ربانى نجم الدين رباية فوارس ... تشبه رباية الشبل جوا العرين
وعيت من الدنيا على ظهر رامح ... يجرى ودرعى شمال وسيفى يمين
قضيت حياتى من ميدان لميدان ... عدد سنينى من الدنى ميادين
لا عرفت طعم النوم إلا خطيفه ... لو كان يلين الحديد عزمى أنا ما يلين
فى ملحمة لافرنج ربى نصرنى ... ولويس أسرته وكنت فى العشرين
وواجهت هولاكو التتارى وهزمته ... فى عين جالوت وطحنت جيشه طحين
وادينى طهرت البلاد من الدسايس ... ما تركت شده فى الأمور أو لين
إيش بعد أنطاكيه وتسليم طرابلس ... غير وحدة الأمه فى دنيا ودين

على أن ما أقدم عليه بيبرس لم يفلح فى تثبيت مركز ابنه الملك السعيد فى السلطنة بعد وفاته، وتعرض أبناؤه لدسائس الأمراء حتى انتهى الأمر بقيام السلطان قلاوون فى الحكم.

■■ يا إفرنج يا

أدرك الظاهر بيبرس أن دولته تواجه حلفا قويا يربط بين اثنين من ألد أعدائه هما الصليبيون (الإفرنج حسب تسمية تلك الأيام) ومغول فارس، وقد تكون الاتجاهات والمصالح الخاصة لهذين الخصمين متباعدة أو متعارضة، ولكن غاية واحدة ربطت بينهما، هى العمل على اجتياح البلدان فى المشرق العربى، وإذا كان السلطان بيبرس قد أدرك هذه الحقيقة، فإن خطته اتجهت إلى القضاء على هذين الخصمين كل على حده.

أما عن الصليبيين فكانوا أقرب مكانا وأيسر منالا من المغول، فضلا عن أن قلاعهم ومدنهم كانت بمثابة جزر متناثرة وسط محيط عربى واسع يخضع معظمه لسلطة بيبرس، ثم أنه كان يدرك جيدا الدور الذى قام به الصليبيون فى المؤامرات التى حاكها أمراء بنى أيوب لدولة المماليك عند قيامها، فضلا عن أنه نازلهم فى معركة المنصورة وسبر غورهم وأحاط علما بأساليبهم الحربية، ووقف على حقيقة قوتهم ونشاطهم السياسى؛ ولهذا كله اختص بيبرس الصليبيين بالجزء الأكبر من جهوده.

وكان بيبرس فى حروبه ضد الصليبيين صريحا غير ملتو، مما جعل أعداءه يعرفون دائما أغراضه واتجاهاته، ولم تمر سنة من السنوات العشر الواقعة بين سنة ١٢٦١، ١٢٧١م دون أن يوجه حملة أو يقوم بغارة على الممتلكات الصليبية بالشام، وفى تلك الأثناء كان يلجأ أحيانا إلى توقيعالمعاهدات وعقد الهدنات مع الصليبيين إذا أحس بحاجته إلى ذلك، ولكنه لم يجد غضاضة فى أى وقت فى خرق تلك المعاهدات ونقض تلك الهدنات قبل انقضاء أجلها التقليدى وهو عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام،وقد بدأ الاحتكاكبين بيبرس والصليبيين عندما أغار بعض أمرائه على أعمال إمارة أنطاكية سنة ١٢٦٠م.

وفى سنة ١٢٦٣ شرع السلطان بيبرس فى القيام بهجوم شامل على الصليبيين بالشام، وكان أن اتجه من غزة إلى جبل الطور قرب عكا، وعندئذ تملك الصليبيين الخوف فأرسلوا إليه يظهرون التوبة والتمسك بالهدنة، وأخذوا يتذللون للسلطان بيبرس ويطلبون " مراحم السلطان "

ويتعهدون بفك أسرى المسلمين والمحافظة على العهود والمواثيق.

وفى هذا المقام أنشأ أحد مرافقى السلطان يقول.. صلوا على طه الرسول:

بَعتْ « البوهيموند »[1] مَراسيله يطلب إحسان
ويقول يا بيبرس إحنا أحبه وبقينا جيران
وملوك لافرنج يا سلطانا ملهاش أمان
بعت البوهيموند وهو شايف جيشك منصور
والآن «هلاوون»[2] وأجناده باتوا فى قبور
وطى لودان وحق الله وطى لودان
وأول مايشوف منك غفله أول مايشوف
ينزل كفين على جيشك يكسح ويشوف
إفرنج جبان عليم الله إفرنج جبان

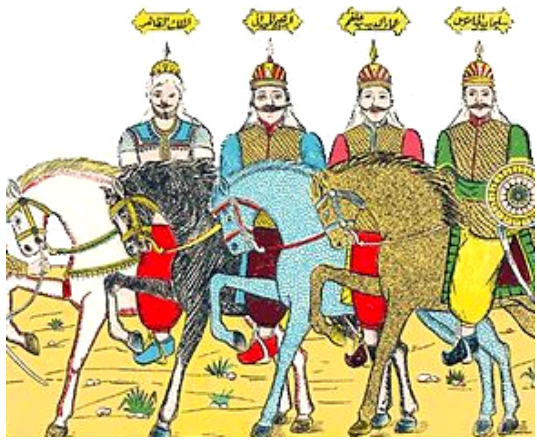

رسم شعبى للظاهر بيبرس ورفاقه

(١) "**بوهيموند** " كان ملك أنطاكية وطرابلس.

(٢) **هلاون** " هو اسم هولاكو فى الأدب اشعبى المصرى.

فرد السلطان على الرسل قائلا: كان هذا قبل خروجى من مصر فى هذا الشتاء وهذه الأمطار ووصول العساكر إلى هنا، ثم أنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

من بعد حمد الله أصلى على النبى ... اللى الإله سماه رءوف ورحيم
إحنا بحمد الله أمة محمد ... اللى حماها الله بالـ ح و م
حم سبع مرات فيها حمايه ... تصد عنا كل خطب جسيم
طهرت أرض الله من عابدى الوثن ... وولاد هولاكو بيتوا في جحيم
فاضل جيوش لافرنج اللى وجودها ... في أرضنا غصه لكل كريم
السافل «البوهيموند» منه استجارت ... أنطاكيه أم تاريخ قديم
كذاك عكا وصور ويافا وحيفا ... في كل منها غول فرنجى زميم
يا افرنج يا أندال إن لم أصدكم ... يحرم على نفسى تشم نسيم
واللى ما يدفع عن بلاده الأعادى ... ماله مقام محفوظ وماله حريم
وإزاى يدوق النوم ويهنا فؤاده ... اللى يشوف في كل ركن غريم

هولاكو

■■ استراتيجية الحرب

كان السلطان بيبرس يتبع خطة تستهدف مهادنة بعض القوى الصليبية- التى تحتل مدن الشام الساحلية - دون البعض الآخر، فبينما هادن بيروت وصور، فإنه حرص على عدم مهادنة عكا وطرابلس وأنطاكية مما أتاح له ميدانًا للعمل ضد الصليبيين فى سواحل بلاد الشام الشمالية والجنوبية. وفعلا لم يكد يفرغ من الاستيلاء على حصن الشقيف أرنون حتى اتجه شمالا، فمر قرب بانياس وقصد طرابلس حيث أغار على ضواحيها والجهات القريبة منها، وسرعان ما أفزعت هذه الأحداث أمراء الصليبيين فى الحصون والقلاع المجاورة فأسرعت صافيتا وأنطرسوس إلى تقديم فروض الولاء والطاعة له. ثم استأنف بيبرس سيره، فمر بحمص وحماه دون أن يعرف احد حقيقة مقصده، وأخيرا وصلت جيوشه إلى أنطاكية فأحاطت بها من كل جانب، وعندئذ اتضحت نيته فى الاستيلاء على هذه المدينة.

والمعروف أن أنطاكية مدينة كبيرة قوية التحصين، سبق أن عجز الأباطرة البيزنطيون أنفسهم عن أخذها من الصليبيين؛ لذلك اختار بيبرس أن يكتب إلى الصليبيين فى أنطاكية يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم، وفاوضهم فى ذلك ثلاثة أيام وهم لا يجيبون. وكان أن أخذ بيبرس فى شن هجوم عام على المدينة، حتى نجح رجاله فى اقتحامها وعندئذ فرت الحامية الصليبية وعددها ثمانية آلاف إلى القلعة وأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم السلطان بيبرس.

وهكذا تم استيلاء بيبرس على أنطاكية فى أواخر مايو سنة ١٢٦٨. ولم يفت بيبرس أن يكتب رسالة إلى الملك بوهيموند صاحب أنطاكية وطرابلس - وكان عندئذ مقيما فى طرابلس – بذلك الأسلوب التهكمى اللاذع الذى اشتهرت به رسائله وختمها بقوله:

حلفت يا بوهيوند بالله خالقى ... ما يفوت عليك العام يا شحات
ما يفوت عليك العام فى أرض العروبه ... ودا فات منها اللى عدى وفات
انت وأمثالك كلاب السواحل ... على العباد غليتم الأقوات
إن كنت مره تلف حُول القوافل ... هتلف ويايا سبع لفات
إذا بيت يا بوهيموند فيها ما تصبح ... وإن كنت تصبح مستحيل تبات
أنطاكيه هاجعلها لجيشك قرافه ... وانت أجعلك حاكم على الأموات
وتستغيث يا جبان باللى يغيثك ... بشربة الميا ولا تتغات
المسلمين اللى نهبتم فلوسهم ... هيقبضوها منكم عشرات
والمسلمات اللى لمستم جُسمهم ... هيقطعوكم من جسمكم بالذات

والواقع أن استيلاء بيبرس على أنطاكية كان أعظم فتح حققه المسلون على حساب الصليبيين فى بلاد الشام منذ استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس سنة ١١٨٧م؛ لذلك كان فرح المسلمين بذلك الفتح عظيما، وكُتبت البشائر إلى الأقطار الشامية والمصرية حيث أقيمت الزينات والأفراح. أما بالنسبة للصليبيين فقد كان ضياع أنطاكية أعظم من مجرد كارثة حربية، لأنه بصرف النظر عما لهذه المدينة من مكانة كبرى فى تاريخ المسيحية الأول، فأنه لايخفى علينا أن أنطاكية كانت من أولى الإمارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق فى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٨م،وأنها منذ ذلك الوقت ظلت بمثابة القلعة الكبرى للصليبيين فى بلاد الشام.لذلك جاء سقوطها على يد بيبرس نذيراً بانهيار البناء الصليبى بالشام، وإعلانا لحركة الجهاد الكبرى التى شنها سلاطين المماليك ضد الصليبيين، وهى الحركة التى لم تنته إلا سنة ١٢٩١م بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام.

■■ بيبرس.. فى الحرب لم تخذل له راية

فى الوقت الذى تزعم فيه السلطان الظاهر بيبرس حركة الجهاد ضد الصليبيين، تزعمت جزيرة قبرص القوى الصليبية فى الشرق الأدنى فى عدوانهم على المسلمين. وكانت هذه الجزيرة قد شهدت فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى قيام أسرة جديدةفى حكمها وهى أسرة آل لوزجنان الصليبية. وفى سنة ١٢٦٩م جمع هيو الثالث لوزجتان بين تاجى قبرص ومملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا،مما مكن ذلك الملك من القيام بدور نشيط فى محاربة المسلمين بوصفه حاكما على أكبر دولتين للصليبيين فى الشرق.

وقد بدأ الملك هيو الثالث سياسته العدوانية ضد بيبرس بأن قبض على رسل السلطان وهم فى طريقهم إلى السلاجقة الروم، وذلك على الرغم من الأمان المعطى لهم، على أنه يبدو أن بيبرس لم يكن مستعدا فى ذلك الوقت للقيام بعمل حربى كبير ضد جزيرة قبرص وملكها، فاكتفى بدعوة بعض زعماء الصليبين وعاتبهم عتابا شديدا وتعرض بيبرس لملك قبرص بالنقد القوى والتحقير الشديد والتهديد والوعيد.

ولم يكن بيبرس بالرجل الذى يقول ولا يفعل، بل أنه سرعان ما ألحق تهديده بالتفكير فى غزو قبرص، وأخذ يعد العدة لذلك، وفى هذا المقام استحضر بيبرس ما قام به معاوية بن أبى سفيان حين كان واليا على الشام حيث استأذن الخليفة عثمان بن عفان فى غزو قبرص، واتجه الأسطول الاسلامى إليها عام ٢٨ هجرية وتم انتزاعها من البيزنطيين، وأنشأ بيبرس يقول.. صلوا على طه الرسول:

صلى عليك الله فى كل لحظه ... يا خير من أرشد وقاد الكتايب

بمفردك خليت مكه وأهلها ... ورجعتها بجيوش تغطى السحايب

واصحابك الأبـرار سـلكوا سـبيلك　　من كل رأى سـديد وعقـل صـايب
يــرحم أميــر المــؤمنين معاويــه　　بنى لهـا الأسـطول وشـد الركايـب
وبعــد مــا كانــت مــلاذ للأعــادى　　بقــت الجزيــره منتــزه للحبايــب
قبرص أيـا جنـه علـى البحـر عايمـه　　فيكى الثمار للطيـر حاضـر وطايـب

وسرعان ما سنحت الفرصة لبيبـرس سـنة ١٢٧٠م عنـدما علـم أن هيـو الثالث حضر إلى عكا يتفقد شئون مملكة بيـت المقـدس، فـرأى بيبـرس أن يداهم الجزيرة فى غيبته، وكان أن أسرعت المراكب المصـرية - وعـددها سبع عشرة – إلى جزيرة قبرص، غير أن ريحا عاصـفة هبـت علـى السـفن على مقربة من ليماسول، فانكسر منها أحد عشر مركبا، وتم أسر من فيهـا من الرجال، أما المراكب الباقية فقد نجت وعادت سالمة.

ولم يستطع هيو الثالـث أن يخفـى شـماتته، فأرسـل إلـى السـلطان بيبرس يخبره بانكسار سفنه وأسر رجاله، واختار بيبرس أن يجعل مـن الهزيمة نصرا ومن الانكسار ظفرا فقال " **الحمد لله ! منـذ ملكنـى الله تعالى ما خذلت لى راية**، وكنت أخاف إصابة عين، فبهذا ولا غيره !!". ثم بادر بيبرس بكتابة رسالة إلى هيو الثالث، بذلك الأسـلوب التهكمـى اللاذع الذى اشتهرت به رسائله. وصـادف عندئـذ أن كـان بيبـرس قـد استولى على حصن القرين، فوازن السلطان فى رسالته بين فـتح حصـن القرين وبين ما يدعيه هيـو الثالـث مـن نصـر زائـف مرجعـه الـريح والعواصف لا شجاعة الرجال وبلاء الفرسان؛ قال " وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب.. **وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح**..ونحن ننشئ فـى يوم واحد عدة قطايع (سفن) ولا ينشأ لكم من حصن قطعـة، ونجهـز مائـة قلع ولا تجهز لكم فى مائة سنة قلعة. وما كل من أعطى مقدافا قدف ومـا كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو عرف.. وأنتم خيـولكم المراكـب ونحن مراكبنا الخيول ".

الجزء الثاني

مشاهد من التاريخ والسيرة الشعبية

■■ يا مغيث !

في زمن فاصل بين معارك الظاهر بيبرس الجهادية المتتالية مع المغول والصليبيين، جلس فى ديوان القلعة مع وزيره زين الدين ابن الزبير، وهو يعتبر من أشهر وزراء ذلك الزمان والذى آتاه الله من عظيم المواهب وجزيل المنن، وكان أمام السلطان والوزير عدة كتب فى التاريخ والأدب والرياضة، وكان السلطان وابن الزبير ينسى كل منهما نفسه إذا خاض فى العلم والفن والأدب. وفى هذه الجلسة دار حوار بين السلطان بيبرسووزيره على النحو التالى:

السلطان: ما رأيك يا زين الدين في الشعر والشعراء ؟

زين الدين: أحسن ما قيل في الشعر والشعراء هو قول الله عز وجل "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ".. يعنى اللى عايز يملا دماغه بأوهام

مزخرفه وصور مزيفه يروح للشعراء ويحفظ شعرهم ويتبع خطواتهم.

السلطان : والسلطان اللى يذبح أبناء الناس ويستحيى نساءهم، ويبنى من أموالهم قصر من المرمر ويفرشه بالسندس والديباج دا يبقى من أكبر الغاوين اللى يحبوا الشعراء، عايزهم يقولوا له يا أعدل العادلين ويا أكرم الأكرمين مثلا.

واللى قال:

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها

ويصدق هارون إن ميلاده شفى الشمس من مرضها.

زين الدين: والبحترى هو الآخر يقول للمتوكل:

لو أن مشتاقًا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك المنبر

بيبرس: ومادام المنبر هيمشى على رجليه للمتوكل.. يروح آمر للشاعر بـ ٥٠ ألف دينار.

زين الدين: أهى الدنانير دى جعلت الشعراء يعصروا قرائحهم ويخترعوا أكاذيب تنفع لعب أطفال.. والمتنبى العظيم يقول لابن آدم زيه واللى ربما يكون أقل منه في العلم والفضل:

أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار العالمون مجوسا

عشان يطلع الفلوس من جيب الملك قرب يكفر.. أنا خلاصة رأيى في المادحين والممدوحين إنهم شوية شحاتين بيتلطعوا عند شوية لصوص.. كُتب الأدب والتاريخ كلها مشحونه بالثناء على الكرام اللى من أمثال معن ابن زائده وأبو دنف ويحيى البرمكى، مفيش مؤرخ أو مؤلف سألهم الفلوس اللى بيبعتروها دى جايبينها منين ؟.. طبعا من جيوب الناس وأرزاقهم، الله يرحم الناس اللى كانوا عايشين في هذه

الأزمنه المظلمه.

زين الدين: نعود ونقول يا سيدى السلطان إن الشعراء شغلوا أنفسهم بالمديح؛ لأنهم عايزين يعيشوا، أما غير مدايح الملوك بنقرا لهم مقطوعات ومطولات رائعه تدل على أن عقول العرب أكبر عقول ظهرت في بنى الإنسان، زى معلقة امرؤ القيس وسينية البحترى.

بيبرس : أنا أيام ما كنت متفرغ للمطالعه كنت أقرأ الديوان كله عشان أختار منه ثلاث أو أربع أبيات وساعات بيت واحد.. شوف عمرو بنمعد يكرب الشجاعالجبار اللى حضر الجاهليه والإسلام له قصيده عينيه اخترت منها بيت واحد وجعلته دستوراً أمشى عليه في حياتى كلها:

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

زين الدين: دا مدهش يا سيدى السلطان، دى الحكمه اللى نزلت على ألسنة العرب.

بيبرس : وأبيات ظهرت اليومين دول لشاعر أندلسى عايز أكتبها بالدهب هناعلى جدران بيتى:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

كل مدينه في الأندلس لها خليفة سمى نفسه أمير المؤمنينوله منبريدعو لهكل يوم الجمعة، إحنا واقعين في الحاله دى.. حماه فيهاالمنصورولقبهأظن " المعتمد"، وحمص فيها شيركوه ومسمى نفسه " المعتضد " وأمير المؤمنين بقى اللى عايز يحكمنا كلنا اللى اسمه المغيث.

زين الدين : يا مغيث !

■■ حقوق الأسرى

وصل السلطان بيبرس إلى دمشق بعد إحدى معاركه المنتصرة ضد إمارات الإفرنج الموجودة بسواحل الشام، وبينما هو فى سرادق أعد لاستقباله والاحتفال بالنصر، قدم عليه وفد من قبل"البوهيموند" ملك أنطاكية يطلب الصلح وعقد معاهدة عدم اعتداء معه؛ فعمت الفرحة بين جموع الناس وأنشد المنشد يقول.. صلوا على طه الرسول:

أيا يا بيبرس يا أمه ... يا عالى الروح والهمه
أيا محموده أفعالك ... ويا اسما على مسمى
ملوك الروم فى حصونها ... خلقت الرعب فى عيونها
إذا سمعت بدبوسك(*) ... بنور الشمس تتغمى
لويس اللى ارتفع تاجه ... على الهالح وأمواجه
بأسطوله وأبراجه ... جعلته للسمك رمه
وهولاكو عدو الله ... وجيشه كالجراد والله
و«هالبوهيموند» شيعلك ... رسول يركع على نعلك
دا البوهيموند من فعلك ... يبات الليل فى غُمه

رسم تخيلى لوجه الظاهر بيبرس

(*) **الدبوس** : أداه للقتال.

بعد أن استمع السلطان بيبرس لوفد الإفرنج، ذكرهم بأسرى المسلمين لدى ملكهم البوهيموند،حيث يعاملون أسوأ معاملة، بينما أسراهم يعاملون - كما أمر ديننا الحنيف - معاملة حسنة، ثم أرسل معهم رسالة إلى ملكهم يقول فيها :

أيا بوهيموند خبرنى	على ما نويت للأسرى
شباب فى عزهم ذاقوا	لديك الذل والحسره
مسخرهم فى أقذارك	وماتحلش لك السخره
ولا تطعمهم اللقمه	ولا تدفع لهم أجره
وأجسادهم من الكرابيك	بتتمزق وتتهرى
وأسراك عندنا بتنام	على طراريح وأسره
بيتاوبوا ويتمطوا	ولا ذاقوا التعب مره
ومره يلعبوا الكونكان	ومره يلعبوا البصره

■■ لا للشعوبية

بعد أن استولى المغيث عمر على مدينة الكرك بفلسطين، سولت له نفسه الهجوم على مصر – بعد أن استقر بها الظاهر بيبرس – والاستيلاء عليها هى وغيرها من البلاد بحجة أنه من سلالة صلاح الدين الأيوبى؛ ولهذا الغرض استعان ببعض جموع الأكراد الذين فروا من وجه المغول، كما أنه تواطأ مع المغول ضد المسلمين فى سبيل استرداد سلطان بنى أيوب، وعندما علم الظاهر بيبرس بذلك خرج من مصر قاصدا القضاء عليه، ولما نزل بجيوشه فى مدينة غزة، دخلت عليه أم المغيث تستشفع فى ولدها فقبل بيبرس الشفاعة كعادته فى العفو عن خصومه، لكنه اشترط أن يحضر المغيث بنفسه إلى مدينة بيسان لمقابلته ودار بينهما الحوار التالى:

المغيث : أنا أجبت رغبة والدتى وحضرت ليك بناء على طلبكيا بيبرس.

بيبرس: (ساخرا) كتر خيرك.. طاعة الأمهات من طاعة الله.

المغيث : اتفضل قوللى إيش طلباتك ؟

بيبرس : انت مضحك ومسلى.. طلباتى يا سيدى انك تسلمنى العساكر الأكراد اللى عجزت عن أكلهم وشربهم، عايزهم يقعدوا عندى ضيوف.

المغيث: وبعد كدا ؟

بيبرس: بعد كدا انت نفسك ترجع معايا على مصر.

المغيث: ضيف برضك ؟

بيبرس: إذا شئت.. لكنك فى الحقيقه أخ وصاحب بيت.

المغيث: وليش تحرمنى أنا من الواجب دا ؟ خلى الأكراد يرجعوا

على مصر وانت تعالى فى الكرك أخ وصاحب بيت.

بيبرس: طبعا أنا وجيشى اللى من غير الأكراد.

المغيث:إذا كنت يا سلطان مصر بتقول إن أنا عجزت عن إطعام ١٢ ألف، فكيف عايز تكلفنى إطعام ٨٠ ألف عسكرى جايبهم معاك ؟

بيبرس:ماتخفش أنا كنت بأمزح معاك.. واسمع يا ملك يا مغيث.. لا تيجى عندى ولا آجى عندك.. يظهر انك مش واثق فىّ ولا أنا واثق فيك، خلينا هنا فى بيسان نستريح كام يوم وبعدين أنا وانت نتبارز أمام جيشك وجيشى، ونوصى الجيشين إن اللى يغلب التانى يتبعوه.

المغيث: يغلبه يعنى إيه ؟

بيبرس: يعنى يقتله مثلا.

المغيث:أنا ألوم نفسى اللى سمعت كلام امرأه وجيت أفاوضك.

بيبرس: قصدك أمك يا مغيث الدوله ؟

المغيث: أيوه يا سيدى حسبت نفسى هصافح راجل راغب فى الصلح، لكن وجدتك زى ما انت سفاك..سلجوقى.. تركى وديليمى.

بيبرس: لكن أنا مش هاقول لك يا كردى أو يا بنطى ولا كلدانى، كل الأصول التى تنتمى ليها عيلة صلاح الدين، الإسلام جعلنا أمه واحده والحمد لله على المنزله الرفيعه اللى رفعنا ليها الله عز وجل، ونعوذ بالله من الانحدار إلى سفالة الشعوبيه والتفاخر بالجنسيات.

المغيث: يا بيبرس الناس مخلوقين ساده وعبيد وأقويه وضعفاء لحكمه يعلمها الله.

بيبرس:الحكمه لا تخفى إلا على الجهلاء، الأذكياء النبهاء يقدروا يفهموها، اسمع أنا جايب معايا شاعر ظريف عشان يسلينا فى الساعات العصيبه هاخليك تسمعه، ثم نادى على الشاعر أبو سليمان ووجه إليه الحديث قائلا : قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ **عايزينك تفسر لنا الآية دى عشان يفهما العوام.فأنشأ أبو سليمان يقول.. صلوا على طه الرسول:**

يصـــور ربـــى ويكـــوّن ... ويرســـم ربـــى ويلـــوّن
عشـــان العيشـــه تتهـــوّن ... علـــى المخـــاليق وعليـــا
عشـــان بنـــت الحـــبش يحلـــى ... فى عينهـــا الشـــاب لافرنجـــى
ويحلـــى الأســـمر الزنجـــى ... في عـــين الانجليزيـــه
عشـــان مـــاتوه وتتحيـــر ... في روض الحســـن وتغيـــر
تنســـيك أم شـــعر أصـــفر ... قـــوام الزنجباريـــه
تشـــوف البيضـــا كحلهـــا ... بكحـــل الفـــن والقـــدره
وســـمرا والعيـــون خضـــرا ... بأوصـــافك يـــا مصـــريه

■■ الأمان.. حق الرعية على الراعى

بينما كان بيبرس جالسا فى مجلس السلطنة بدمشق، دخل عليه وفد من أعيان التجار وأصحاب القوافل التى تسير بين شمال سورياوجنوبها، وأخذوا يشكون من فداحة الضرائب والمكوس والإتاوات التى يتقضاها البوهيموند ملك أنطاكية فى الذهاب والإياب، وكان المتحدث باسم الوفد يدعى العيداروس التهامى فأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

نكبه على الإسلام حلت مطمطمه ... ولا عاد مسلم فى بلاده يعيش
على ما يقول العيداروس التهامى ... ومهما زاد فى القول مايكفيش
قضيت طول عمرى أسير بالقوافل ... محمله من حضرموت لعريش
لا الوحش فى الفلوات يهوب علينا ... ولا حوالينا تطير خفافيش
من الفرات الأرض إحنا سادتها ... إلى شطوط النيل وغيرنا ما فيش
طلع لنا البوهيومند فى كل مرحله ... وكل خطوه يطلب البقشيش
رجال معاها حراب تلمع سنانها ... وتشير إلى صدر اللى ما يديش
وفى صدور الغيد(*) لعبت إيديهم ... أفعال فى شرع الله ما ترضيش
من عسكر البوهميوند شفنا المذله ... من ستر يتفضح ومن تفتيش
والقافله تدفع الإتاوه مقدم ... وفى الروحه والجايّه ولو ماتجيش
ادرك عباد الله وأهل المفاسد ... اقطع ضرايرهم ولا تخليش

(*) **الغيد** : جمع غيداء أى الفتاة شديدة الجمال ناعمة الملمس.

وكان بيبرس على علم تام بما يفعله الإفرنج اللئام بقوافل المسافرين؛ ولذا عزم على عمل ترتيب عجيب، وهو أن سير قافلة فى الطريق المعتاد من الجمال تحمل الصناديق المصفحة بالذهب والفضة التى تخطف الأبصار، ويتقدم هذه القافلة كل من العيداروس التهامى وحسون النقيب صديق بيبرس وبجانب كل جمل جمّال ملثم، بينما بيبرس فى آخر القافلة في ملابس جمّال فقير.

وكان رئيس لصوص البوهيومند مستعرب يدعى "باولو" ومعه من اللصوص أربعون، ولما رأى القافلة لا تحمل سلاحا ظاهرا نادى بأعلى صوته لتتوقف، وكانت هذه إشارة لبدء خطة معدة من قبل بيبرس مسبقا للقضاء على هؤلاء اللصوص، وأنشأ العيداروس يقول.. صلوا على طه الرسول:

عصـــابة البوهيمونـــد باتـــت كلهـــا ... علـــى مشـــانقها و«بـــاولو» قبلهـــا
علـى كـل ربـوه وتـل قامـت مشـنقه ... مـــن الســـنط والبلـــوط شـــايله حملهـــا
جتت مـن الإفـرنج فـوق رؤسـها خـوذ ... شـــعاع نـــور الشـــمس يلمـــع منهـــا
طالعـه علـى الأريـاح تبحـث يـا عـرب ... وباتـــت الأريـــاح تتلاعـــب بهـــا
مـــابين نســـور الجـــو قامـــت معركـــه ... وبـــين ذئـــاب الأرض قامـــت مثلهـــا
النســـر قـــال يـــا ديـــب رزقـــى في العـــلا ... والـــديب يقـــول الأرض رزقـــى منهـــا
ومـــرت التجـــار ســـايقه حملهـــا ... علـــى الـــدروب مـــا تخـــاف إلا ربهـــا
واسـتعجل البوهيمونـد بـاولو وشـلته ... وأرســـل البعثـــات تبحـــث عنهـــا
سمعوا طبـول العـرس قـالوا يـا عـرب ... شفتوش فوارس بـيض يعجـب شـكلها
حسون أجـاب القـوم بـاللين والعطـف ... وهمـــا بـــين جبلـــين فيهـــا حتفهـــا
وتعلقـوا رخـرين مـن فـوق الشـجر ... لحـد مـا يبجـى اللـى يسـأل بعـدها

وأخذت هذه القافلة تتجول في كل فج وكل درب، وكلما طلع عليها لصوص الإفرنج يطلبون ثمن الحراسة قابلتهم بالترحاب وقطعت منهم الرقاب أو علقتهم على الأعواد والمشانق.

■■ الحرب النفسية تسبق القتال

بينما كان الظاهر بيبرس يجلس فى ديوان القلعة ذات صباح، طلب الاطلاع على رسائل الحمام الزاجل ومن ضمنها الرسائل التى يُحضرها أحد أعوانه المدسوسين لدى جاسوس الإفرنج "جوان" بعد أن يقرأها ثم يعيدها مرة أخرى إلى مكانها، ولما اطلع بيبرس على هذه الرسائل وجدها واردة من ملك أنطاكية وملك صور وملك عكا أى ملوك المدن الساحلية التى لا تزال فى أيدى الإفرنج، يطلبون فيها من جوان أن يوافيهم بمعلومات دقيقة عن جيوش بيبرس ونواياه وعن عدد الأسرى الإفرنج الموجودين عنده؛ فتبسم بيبرس لأنه يعلم أن جوان ليس إلا نصاب يأخذ ولا يدفع ويقبض ولا يشتغل، ثم أمسك القلم وكتب يقول وجعل لكل نسخة رسول:

إلى ملوك جالسين على غير عروشهم إلى دول بنى آدم إلى الخنازير

إلى كلاب ضلت صحابها وأرضها ... بنحضر الأطواق والجنازير
بتسألوا عنا وعارفين جوابكم ... قبل الحمام من عندكم مايطير
إحنا جنود الله ما يحصى لها عدد ... يوم الوغى إلاه عليا قدير
أما نوايانا فلا تستخبى ... وسرنا عمره ما كان في بير
أنا كل يوم يا قوم هابعت مصيبه ... وابعت لكم قبل المصيبه نذير
عكا وصيدا وصور نوينا حصارهم ... وأنطاكيه قبلهم حصارها عسير
في البر زاحفه لكم من الترك والعرب ... جيش من مبارز في القتال ومغير
أما السواحل يا لصوص السواحل ... جياكم الشفاتير ورا الشفاتير
أما عن الأسرى نبينا محمد ... أمرنا بالإحسان لكل أسير
أسيرنا مرتاح طعامنا طعامه ... وتحت جنبه مرتبه وسرير
وأسيركم يا مجرمين في دياركم ... قاسى الكتير م الجوع والتسخير
ياللى جعلتوا جوان سفيركم فى أرضنا ... يا خيبة اللى جوان يكون له سفير

■■ الحكمة سرالنجاح فى الدعوة

بعد جلوس السلطان بيبرس على كرسى السلطنة، تكشفت شخصيته للناس وسجل التاريخ له أكثر مما سجل لغيره من السلاطين والملوك، عرف الناس بيبرس السلطان الذى يحفر الترع مع الفعله، وعرفوه وهو السلطان يجلس بين يدى ولى الله محيى الدين ابن العربى الذى ألف أكثر من مائة كتاب فى علوم الدنيا والآخرة ومنها كتاب الفتوحات المكية الذى يبلغ عشرة آلاف صفحة، وقد أجاز هذا الولى لبيبرس قراءة كتبه وتدريسها وهذه الإجازة تعد بمنزلة الشهادة العالمية هذه الأيام. وعرف الناس بيبرس يتتلمذ على يد ولى الله الخضيرى - المدفون الآن بالصليبة بالقاهرة - وهو من أولياء الله المشهورين وكان يمد بيبرس بإشاراته ويدعو له بالتوفيق فى كل عمل.

وفى إحدى حلقات الدرس التى يعقدها الإمام الخضيرى بعد صلاة الفجر بمسجد الإمام الشافعى كان السلطان بيبرس جالسا بين المستمعين لا يتميز عنهم بشيء وبدأ ت حلقة الدرس كالتالى:

الإمام الخضيرى : بسم الله الرحمن الرحيم.. قال الله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ الحكمة يا أبنائى هى سر النجاح فى الدعوة أو الدعاية، مش حكيم العالم اللى يقرا على الصنايعيه والفلاحين دروس فى النحو والصرف أو دروس فى عقود البيع والشراء والزواج والطلاق، فى حين انهم محتاجون لتصحيح الفرائض الضرورية مثل الصلاة والصوم والزكاة، ومش حكيم اللى يواجه الناس بالعيوب اللى فيهم ويقول للحرامى يا حرامى وللسكير يا سكير، دا فيه حرج للواعظ والموعوظ. ربنا سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير عندما أراد أن يعظ العرب الجاهلية وكانوا عُباد أصنام ومشركين وقتالين قُتلى وسكيرى ولاعبين قمار، وجه الكلام عز وجل للأمم الماضية اللى هما فرعون وعاد وثمود وأصحابالأيكة ؛ فالجاهل يحسب الوعظ لفرعون وهامان وقارون، والذكى يعرف إن الكلام ليكى يا جاره، يعنى ليكى يا بنى أميه ويا بنى هاشم ويا شيبان ويا غطفان.

بيبرس : يا سيدى أكثر الناس بيتجاهل هذه الحقائق ويقولوا أن الزجر اللى فى القرآن موجه للأمم الماضيه، أما أمة محمد فمغفور لها مهما فعلت.

الإمام الخضيرى: كذابين.. دول يا بيبرس تعاملهم بالفقره الثانيه من الآيه نفسها وهى قوله عز وجل " وجادلهم بالتى هى أحسن ".. التى هى أحسن فى أول الأمر يكون الوعظ باللسان مره واتنين، فإن لم ينفع الوعظ باللسان فتكون التى هى أحسن عباره عن الزجر والضرب، فإن لم ينفع الزجر والضرب فيكون السجن أو النفى.. انتهى الدرس يا إخوان.

وبعد انتهاء الدرس توجه بيبرس إلى القلعة ولسان حاله يقول صلوا على طه الرسول:

أصلى على المختار اللى ترك لنا ... شريعه فيها للهدى ينبوع
تروى اللى ساير فى قفار الضلاله ... حتى يبات راوي الفؤاد قنوع
يا سعد من ذو العرش للحقسيره ... أمل الشيطان منه يبات مقطوع
واللى يجافى الحق يمشى فى ضلمه ... ولو تنور له ألوف شموع

■■ عزيمة الرجال

فى حين كان السلطان بيبرس ببلاد الشام، أرسل إليه البوهيموند ملك أنطاكية يطلب عقد هدنه معه، وذلك بعد أن رأى أن بيبرس يمسح جحافل التتر عن آخرها، ولم يبق إلا طرد الإفرنج الذين يحتلون سواحل الشام. وعندما عاد بيبرس إلى مصر جاءت الأخبار البريدية تفيد أن البوهيموند أغار على مدينة حماه واحتلها وقتل من أهلها ما قتل ونهب من أموالها ما نهب، وأصبح واقع الحال يقول.. صلوا على طه الرسول:

فى غيبة الأبطال تبان التعالب ... تلعب بأنيابها ويظهر جبانها
كان الفتى البوهيموند كالكلب خانس ... أنطاكيه تخفيه فى ظل حيطانها
وامـا رجع بيبرس أرض الكنانه ... حسب اللعين دنياه رجع له أمانها
اختار حماه وحماه عروسه صُغيره ... زينة نظايرها وزينة زمانها
حكم الزمان تاخد نصيبها من الأذى ... وحان مع الأيام نها ر امتحانها
هجم عليها هجوم غادر مخاتل ... هدم معاقلها وضعضع كيانها
قسم الرجال فريقين للسرقه فرقه ... وفرقه تشعل فى المدينه نيرانها
وضع الصليب بوهيموند فوق المنابر ... وشال محاريبها وأخرس أدانها
وباتت النواعير تنوح وتنتحب ... على اللى بعد العز شافت هوانها
حسره على ما أصاب أهل المدينه ... البايته فى الأسواق تتباع حسانها

وعل الفور عقد بيبرس مجلس حرب حضره أركان حكمه مثل الأمير سيف الدين قلاوون والأمير سنجر الحلبى وقائد الأسطول وكثير من الأمراء والوزراء، وتم وضع خطة لاستعادة مدينة حماه من

الإفرنج، ثم توجه بكلامه للأمير سيف الدين قلاوون وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

قلاوون يا سيف الدين شد ركايبك ... واطلع لنا بصفوف وراها صفوف
وانزل على الغادرين فى كل منزل ... وبكل قسوه فى جموعهم زوف
حلف لنا البوهيموند أيمان مغلظه ... انه مع الإسلام حليف وعطوف
إذا رأيت التاج على راس إفرنجى ... فأعلم بأن التاج على حلوف
غدر بنا الملعون وأرسل جيوشه ... على حماه أم السواقى ألوف
ابعد يا سيف الدين عن كل مرحمه ... ابعد عن المعروف إلى المتلوف
ولا يغركشى صوات الأرامل ... ولا نفس ملهوفه على ملهوف
والأسرى خليهم يعدوا قبورهم ... ولا تكن بهم رحيم ورءوف
أنطاكيه فيها المسلمات الأسارى ... لكل ناظر جسمهم مكشوف

بعدها دار الحديث بين بيبرس وقلاوون كالآتى:

بيبرس: بعد خروجك يا قلاوون إلى حماه هاخرج أنا إلى أنطاكيه

بالذات، وعلى فكره أنا فكرت أطهر البلاد اللى بينا وبين أنطاكيه من الإفرنج، زى سلخط وعجلون والناصره.

قلاوون : تطهير البلاد دى من الإفرنج يحتاج لوقت طويل، ثم إنها ملهاش قيمه كبيره أو أهميه حربيه.

بيبرس : شوف ما دمت هتحارب ماتخليش حد ورا ضهرك، يعنى أنا أفرح بالهجوم على أنطاكية وأترك الفراغ للحشرات دى تقلق الناس؟.. انت تروح تتولى أمر حماه سواء بالحصار أو النزال وأنا هنا باشطب على دول.

قلاوون :يا ترى سلخط وعجلون والناصرة يخدوا منكم وقت كتير؟

بيبرس :الحقيقه إن سلخط بها قلعه ضخمه ومنيعه وتتعب اللى يستولى عليها، وانا غاوى قلاع.. أحب القلعه زى عنتر ما بيحب عبله، ولا أرتاح إلا لما تبات فى حضنى، نسأل الله التوفيق والنصر على أعدائنا.

سار الأمير سيف الدين قلاوون بالجيش نحو مدينة حماه، وكلما سار مسافة ميل انضم إليه مجاهدون متطوعون فى سبيل الله، وكان قلاوون فارسا لا يشق له غبار، ويسمونه إذا نزل الميدان بالغضنفر الجبار، وكان يشعر بالغيظ لأن " فيكتور" أخو البوهيموند يعتبر "لقمه هايفه" لا تكفيه وكان يريد ما هو أعظم منه. ولما شارف

قلاوون على مدينة حماه أفاض وترجب وغن وترنم وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

ألا يا حماه أنا أول ما أحكى ... أبدى القول أبعت لك سلامى
ويا فيكتور جعلوك من نصيبى ... وفى الميدان ما انتاش من مقامى
سنين وايام وانا بالحرب باحلم ... ونصل السيف ما فارق حزامى
كتير أبطال مصارعتهم تشرف ... بقابلهم ولكن فى منامى
مُنايا كان أقابل وجه فارس ... فى يوم الحرب لا وجه الحرامى
هيسألنى حصانى عن وجودك ... ورايا جيت أو جيت من أمامى
أيا فيكتور أستخسر قصيدى ... بأمثالك واستخسر كلامى
يا دون لافرنج ما كنتم مرادى ... فى دى الأيام ولا كنتم مرامى
وجودكم طال فى الشام الشريفه ... وخيراتها لكم فوق كل شامى
بإذن الله ضاربكم وبالغ ... بعون الله قصدى واعتزامى

هذا ما كان من أمر قلاوون أما بيبرس فقد وصلت جيوشه أخيرا إلى أنطاكية فأحاطت بها من كل جانب، ولأن أنطاكية مدينة كبيرة وقوية التحصين، اختار بيبرس أن يكتب إلى الصليبيين فيها يدعوهم وينذرهم بالزحف عليهم، وفاوضهم فى ذلك مدة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون، ولذلك أخذ فى شن هجوم عام على المدينة، حتى نجح رجاله فى اقتحامها وعندئذ فرت الحامية الصليبية وعددها ثمانية آلاف إلى القلعة وأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم؛ وهكذا تم الاستيلاء على أنطاكية فى أواخر مايو ١٢٦٨م.

■■ من أم واحدة وأب واحد

صورة تعبيرية

كان الظاهر بيبرس يسمى "أبو الفتوحات"؛ لأنه فتح معظم البلاد التى احتلها الإفرنج على سواحل الشام وأعادها إلى حظيرة الإسلام، وفى أيامه كثرت الغنائم فى أيدى المجاهدين بعد أن يأخذ خُمسها إلى بيت المال. وبعد أن انتصر الظاهر بيبرس على التتار فى معركة البيرة والتى يقول عنها مؤرخو الإفرنج أنها أعظم من معركة عين جالوت. دخلت الفتيات التتاريات الأسيرات بيوت المسلمين بعد أن هداهم الله إلى الإسلام بعد أن كن وثنيات يعبدن الأصنام ويسجدن للنيران، ولقد أكرمتهن العائلات المسلمة ولقين المعاملة الحسنة التى أوصى بها الرسول الكريم، وفى هذا المقام يقول الشاعر:

من أم واحده الناس ومن أب واحد حكمة مدبر خافى الألطاف

وتلونت أوصاف وجوه البرايا وللتعارف تلزم الأوصاف

لو كان جميع الناس من صنف واحد ... ما كان إليهم يهتدى عراف
إخوان وكانوا فى سعاده يعيشوا ... لو يحكموا بالعدل والإنصاف
إخوان ويا أسفاه منهم وفيهم ... واحد لأرزاق الجميع سفاف
إخوان ويا أسفاه منهم وفيهم ... واحد لعورات الجميع كشاف
لو تستقيم الناس وكان كل منهم ... يرضى بحظه فى عفاف وكفاف
ما كانت الإخوه تحارب خواتها ... ولا كان ما بين المنصفين خلاف
ولا على ظهر البسيطه رأينا ... بنى البشر متكتله أحلاف

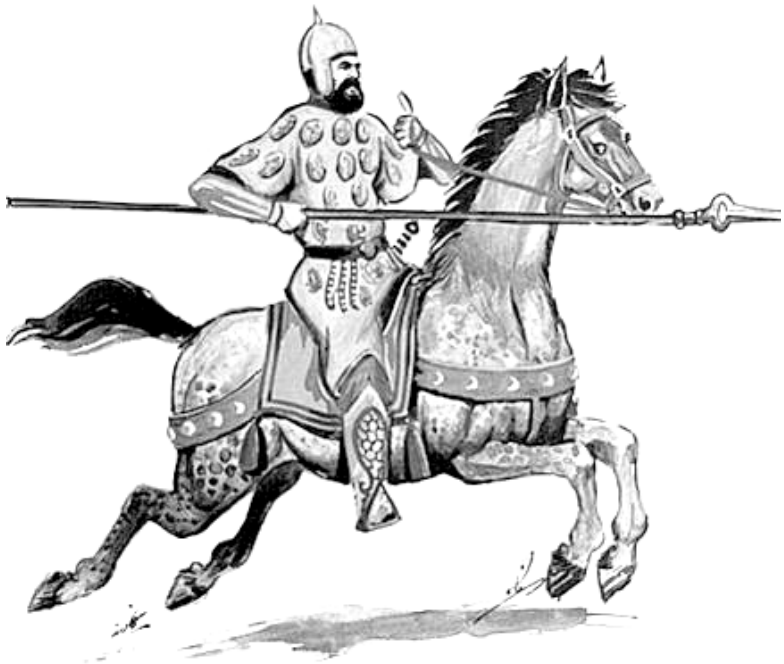

■■ الأميرة سرين

لما الشيطان غر سنجر الحلبى وجعل نفسه سلطانا على مدينة دمشق فى بداية عهد الظاهر بيبرس، كان يعرف أن هذا العمل لايرضى الرب ولايرضى العبد، وأن عمره قصير فى هذه السلطنة؛ فكان يخطف من الناس ما يمكن خطفه من الأموال والجواهر ثم يرسلها إلى خاله فى مدينة بعلبك، وكان يحطم أبواب القصور ويدخلها بالقوة ويروع أهلها حتى يدفعوا له ما يريد، وجاء الدور على قصر الأميرة سرين بنت السلطان شرف الدين، وهى التى تحدثت بجمالها الركبان، وانتشرت سيرتها الطيبة فى كل مكان، وسرين هذه التى كانت تأمل أن يجمع الله شملها بمحمود بيبرس عندما كان هو فى سن الثامنة عشر وهى فى سن الثانية عشر ولكن الأقدار حكمها قهار وسبحان مقلب الليل والنهار، وعندما دخل سنجر قصر الأميرة سرين دار بينهما الحديث التالى:

سنجر: انتى بنت الراجل الحرامى اللى كان اسمه السلطان شرف الدين ؟

سرين: أبى فى عالم الأموات.. من فضلك لا تذكره إلا بالخير.

سنجر: طيب انتى بنت الراجل اللى جمع أموال الناس وأخفاها تحت بلاط القصر ؟

سرين: اتفضل ارفع البلاط وخدالأموال.

سنجر: لا.. أنا مستأمنك انتى.. عاوزك تسلمينى بنفسك الأموال سواء كانت تحت البلاطه أو تحت المخده.

سرين: هل أنت وريث السلطان شرف الدين؟

سنجر: أنا وريث كل سلطان لأن أنا نفسى سلطان.

سرين: أنت مملوك هربان خارج على بيبرس وخارج على المسلمين خاين، فى الوقت اللى بيبرس بيلم شمل المسلمين المتفرق، انت عمال

بتبعزق فى هالشعب وبكره تبيعنا لحكام عكا أو حاكم قبرص.

سنجر: إيش دخلك فى السياسة.. وإيش عرفك بيبرس؟

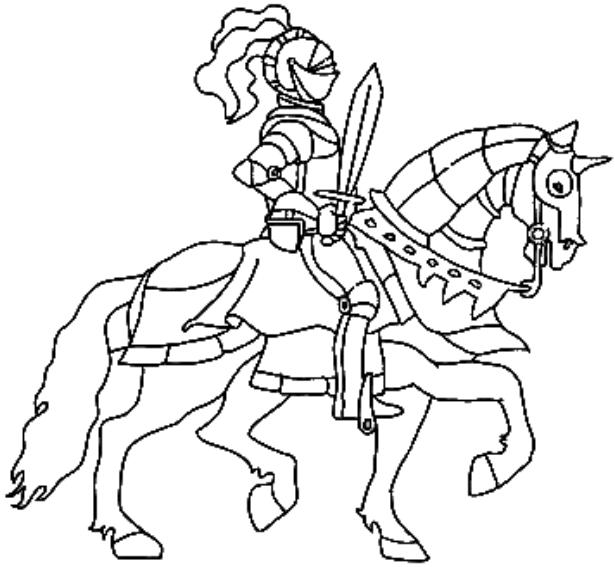

فما كان من الأميرة سرين إلا أنها أوقفت هذا الجبان عند حده ولطمته على خده وأنشأت تقول.. صلوا على طه الرسول:

إن كنت تجهلنى يا سنجر يا حلبى ... أنا ابنة السلطان شرف الدين

إذا الزمان من مُلك أبويا حرمنى ... يكفانى ميراث الشرف والدين

يكفانى قول الناس فى كل منزل ... سرين ومافى المُلك غير سرين

أنا شفت فرسان البلاد فى المواكب ... وفى المعارك وانت تطلع مين

لا انت نظير قلاون فى زينة ركوبته ... ولا انت من خدام فخر الدين

ومن عجيب أمرك وقلة فطانتك ... تجلس مكان بيبرس يا مسكين

لو شافك البواب تجلس مكانه ... حالا يا سنجر يضربك سكين

بيبـــرس لـــما كـــان فى عـــز طفولتـــه سرح بتاج أرناط(*) على الـدكاكين
بيبـــرس يـــا صـــعلوك فى يـــوم وليلـــه فـرق ميـراث أمـه علـى المسـاكين
وانـــت يـــا ســـلطان فى أول بـــدايتك شلت الطنـاجر مـن فـوق الكـوانين
ومـــن إيـــد الفـــران ســـرقوا جنـــودك خبـــز الغلابـــه وهـــو لســـه عجـــين

اتخذ سنجر لنفسه جناحًا بقصر الأميـرة سـرين، ورتـب الطبـاخين والطباخات والفراشين والفراشات، أما الأميرة سرين فقـد تركهـا فـى حجرة محروسة بالجنود وبجانبها حجرة أخرى بها المـاذون والشـهود، وهى "متحزمة" بخنجرين على وسطها ومصممة علـى قتـل نفسـها إذا المأذون كتب عقدها فى حضورها أو غيابها. اسـتمر الحـال علـى هـذا الوضع لمدة شهرين، وأحست سرين أن بؤسها طال وسجنها مالـه زوال؛ فأنشأت تقول على مسمع من سنجر والشهود العدول:

يـــا زمـــان طالـــت همـــومى واتبـــدل ليلـــى بيـــومى
فـــين أهلـــى فـــين أمـــى ينظـــروا للـــى جرالـــى
أنـــا ســـرين الوحيـــده كنـــت فى قصـــرى ســـعيده
أحتمـــل أهـــوال شـــديده بعضـــها فـــوق احتمالـــى
طـال علـى الأهـوال صـبرى والهمـوم فى جسـمى تجـرى
أشـــتهى أدخـــل فى قبـــرى يقولـــوا لـــى القبـــر غـــالى
يـــا مـــا قـــالوا لـــى جمالـــك ينقـــذك مـــن المهالـــك
ييجوا ويشـوفوا اللـى صـابنى والســـبب كلـــه جمـــالى

بعد ذلك دخل سنجر إلى سرين ودار الحوار الآتى:

سنجر: بيقولوا عليكى إن المرحوم والدك رباكى تربيه عاليه.

سرين: الحمد لله.

(*) **أرناط** : كان أميرأنطكية الطناجر: جمع قدر من النحاس.

سنجر: بس أنا شايف العكس.. شايفك غبيه وعنيده، دمشق كلها فى إيدى واللى فيها عبيدى، وانتى لوحدك اللى بتقاومينى مع انك ملك يمينى وفى بيتى أقدر أعتبرك أسيرة وأقدر أبيعك، ولكن عملت ليكى مقام وباعرض عليكى الزواج زى الأحرار وباقدم لك مهر يليق بمقامك.

سرين: هههه.. إيش حالك تعمل يا سلطان وانت ما قرأت كتب الشريعة.. منين أكون ملك يمينك وانا مسلمه حره؟.. هل أبى كافر وانت حاربته؟.. هل اشتريتنى من سوق الأسارى؟.. والمهر اللى بدك تدفعلى إياه منين جبته؟ أليس من أموال أبى اللى أنت نهبتها؟.

عند هذا الحد سُمعت أصوات عالية خارج القصر، فأطل سنجر من الشرفة فوجد جيش بيبرس بقيادة الأمير علاء الدين البندقدار قد دخل إلى القصر للقبض عليه وإرساله مكبلا بالحديد إلى القاهرة.

بعد القبض على سنجر أرسل الأمير علاء الدين البندقدار فى الحال إلى صاحب مدينة بعلبك ليعيد إلى الأميرة سرين أموالها، وبعد أن شكرته طلبت منه أن يرسل هذا الكلام مع الحمام إلى السلطان بيبرس:

أنا بعد باسم الله أصلى على النبى ... وابدأ بها فى مستهل الرسايل
من الفتاة سرين اللى دعوها ... أم العيون فيروز وأم الجدايل
إلى الفتى بيبرس اللى عرفته ... مهذب الأخلاق جميل الفعايل
أهدى إليك سلامين من الفرح والأ ... سى من سن متبسم ومن دمع سايل
أنا فى جمايلك فى بعادك وقربك ... احترت أحسب كام وكام الجمايل
سنجر كسر قلبى وميل عمادى ... أما علاء الدين عدل كل مايل
أصبح رجايا فى حياتى السلامه ... لدنيا ما فيها لعاقل طايل
فيها الأسى دايم وأما نعيمها ... مهما يطول العمر فانى وزايل

■■ للظلم نهاية

تولى بدر الدين لؤلؤ نيابة مدينة حلب فى عهد السلطان قطز، واستمر فى موقعه فى بداية عهد السلطان بيبرس، وكان هذا الرجل سئ الخلق يسلب الناس أموالهم بالباطل وكذلك يخطف بنات حلب بحجة خطبتهن ويأخذ الجميلات منهن لنفسه، ويوزع الباقيات على عساكره، وكان مع لؤلؤ مجموعة من الأمراء الصالحين الذين لا تعجبهم هذه الأفعال فقرروا مواجهته بالحقيقة، فدخل عليه مجموعة من الأمراء وأعيان المدينة بقيادة الأمير حسام الدين العزيزى، وطلبوا منه رد البنات لأهلهن وكذلك رد كل دينار أخذه ظلما من أهل المدينة، لكنه عنفهم ورفض طلبهم، فما كان منهم إلا أنهم قبضوا عليه وكبلوه بالحديد ووضعوه فى السجن، بعدها قرر الأمراء مع أعيان المدينة تعيين الأمير حسام الدين العزيزى أميرا على حلب الذى أرسل رسالة إلى السلطان بيبرس يقول فيها:

أصلِّى عالنبى العربى محمد ... نبى يرتجى يوم الشفاعه

من الشهباء حلب جايه رساله ... إلى بيبرس خاتماها الجماعه

من بنى الموصلى لؤلؤ رأينا ... فعايل تدل غايه فى البشاعه

يظن الأرض ملكه والبرايا ... عبيد فى السوق يبيعهم بضاعه

بنات الناس يخطبهم عذارى ... ويرغمهم على فعل الخلاعه

وفى نهب الدراهم له لطاعه ... معاذ الله تساويها النطاعه

ومن يوم ما قعد عالعرش لؤلؤ ... بنى الشهباء عايشه فى مجاعه

طردنا الندل من أرض المدينه ... وقابلنا الفظاعه بالفظاعه

واحنا فى انتظار شورتك علينا ... أيا بيبرس واحنا أهل طاعه

فلما وصلت رسالة حسام الدين العزيزى إلى بيبرس سجد لله شكرا، وقال هذا آخر مخلفات السلطان قطز رحمه الله، ثم استشار وزيره فيما جرى وأرسل رسالة إلى حسام الدين العزيزى يقول فيها:

حسام الدين جانى يا عزيزى ... رساله بلغت غاية رجايا
جايه أشوف بلاد الله عليها ... فى شئون الحكم عادل فى الرعايا
وحكم العدل أنفع للرعيه ... وأبهى من العطايا والهدايا
حسام الدين تسلم لى يمينك ... وترعاها من الله العنايه
محيت فاجر نزل من نسل فاجر ... وناقص معرفه ناقص رايه
ومثلك يا حسام الدين يصلح ... لحكم الناس يا حلو السجايا
بهجه تجلب النعمه إليهم ... وهِمّه مثلها ترد البلايا
على حاجتين أوصيك يا عزيزى ... فلوس الناس وأعراض الولايا
فلا مسكين ينتظر المتاعب ... ولا مظلوم نسمع له شكايه
وحسبى يا حسام الدين وحسبك ... من الله المناعه والوقايه

■■ سوء الظن

بعد تولى حسام الدين العزيزى أمر حلب، كان التتر فى طريقهم إليها، وكان اسم التتر فى ذلك الوقت مساويا لاسم الجن والشياطين أوالعقارب والثعابين، أنزلوا الرعب فى قلوب المسلمين، وكان الرعب يسبقهم إلى المدينة التى يقصدونها، فيتركها أهلها وينجون بأنفسهم كأنما ينجون بأنفسهم من السيل والنار والزلزال، ولكن الله أرحم الراحمين وأكرم من أن يترك عباده المؤمنين دون أن يرسل من يلم شعفهم، وبيبرس وأقرانه من هؤلاء.

طلب حسام الدين العزيزى من أهل حلب أن يهاجروا خارج المدينة، ثم ذهب إلى حماه ليطلب من ملكها المنصور تكتل كل من حلب وحماه وحمص لمواجة خطر التتر، وأقترح عليه فى البداية أن يأمر أهل حماه بالهجرة إلى حمص، ومنهايبدأ تضافر الجهود لصد الهجمة التترية. ولكن الملك المنصور **أساء** فهم قصد العزيزى وظن أنه يطلب منه إخلاء حماه ليسهل على العزيزى ضمها إليه لكى يصبح ملكا على كل من حلب وحماه، وهنا تدخلت نعمة بنت المنصور لتنقذ الموقف وتوضح الأمر وأنشأت تقول:

أنا أهدى سلامى للنبى التهامى ... نبينا المكرم بطل الغمامه
نبينا اللى جاهد وهو فرد واحد ... إلى أن وصلنا لبر السلامه
وانتم يا خلايق يا بتوع الوصايف ... كل منكو خايف كخوف النعامه
جيتنا يا عزيزى بالقول الوجيزى ... لو ساءت حالتنا ما عليك ملامه
وانت يا مليكنا لا تسبب هلاكنا ... سوء ظنك وعِندك ما هو م الشهامه
يا أبى تقدم من قبل ما تندم ... واللى يموت بحسره ما تفيد الندامه
التتر بليه ناس جهنميه ... ناس ما يعرفوشى للبشر كرامه

وفى تلك الأثناء حضر الملك الأشرف صاحب حمص وهومن سلالة صلاح الدين الأيوبى ودار الحوار التالى:

الأشرف: اتضح يا حسام الدين أنك على صواب فقد وصلتنا أنباء باجتياح التتر لمدينة حلب، وكلنا كنا مخطئين فى تقدير قوة التتر.

المنصور: هذا صحيح.. كنت أظن أنه بعد موقعة بغداد أن التتر

خسروا تسعين بالمائة من جيوشهم وأنهم لا يستطيعون حشد أكثر من خمسة آلاف جندى.

العزيزى : موقعة بغداد ما كانتش معركة حتى يقال أن التتر خسروا فيها عدد كذا من الجنود، موقعة بغداد كانت غاره خاطفة على أهل مدينة آمنة، فاذا كان ضاع مائة ألف أو ألف ألف كائن حى هيكونوا من أهل بغداد وحدهم.

المنصور : ومعركة عين جالوت.. كام ألف تترى قتل فيها ؟

العزيزى: كتير.. فوق ما نعتقد، انكسر جنود التتر على يد بيبرس ولكن أمة التتر كما هى، والحى أكبر من اللى راح بأضعاف.

الأشرف: هذا جدال وسفسطه كلاميه يا اخوانى لا تفيد فى مجالس الحروب، إحنا اعترفنا أننا فى خطر، وهالدقيقه إحنا مستعدين للحرب.

عند هذا الحد بادرت نعمة بنت الملك المنصور بتجميع النسوة لينقرن على الدفوف مع هذه الكلمات:

يا سخط الله على التتر	عُباد الشمس والقمر
طعم جهنم والله أقسم	يطعم هالناس والحجر
أمة محمد فى كربها	موعوده بنصر ربها
فى دنيا يفنى عدوها	ويروح مخلد إلى صقر
نادت بغداد يا عرب	تارى من قاتلى ذهب
ابكوا بعدى على حلب	الرايح دمها هدر

يـــا حـــزب الله قربـــوا مـن كـل مكـان واضـربوا
حـزب الأوثـان والشـيطان أعـــداء الله والبشـــر

■■ يا مصاحب الإفرنج !

جاء فى سيرة الظاهر بيبرس أن نجم الدين الشعرانى زعيم الطائفة الإسماعيلية، كان يدعى الانتساب إلى الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام محمد ابن الحنفية ابن الإمام على ابن أبى طالب، وبناء على هذا الادعاء يرى نفسه أحق الناس بحكم بلاد المسلمين كلها ولهذا كان يدبر المؤامرات الخبيثة ويستخدم الجهلاء ويصاحب الإفرنج للقضاء على حكام المسلمين واحدا تلو الآخر وعلى الخصوص محمود بيبرس، وللشعرانى أحوال شرحها يطول ويلخصها الشاعر ويقول:

يا نجم الدين يا شعرانى ... يا مسلم وانت رومانى
تعادى المسلمين وتقول ... شريف الأصل عدنانى
فى جيشك يشرب الجندى ... شراب القنب الهندى(*)
وتجعلها يا بوهيموندى ... علينا حرب سلطانى
بمالك يا جبان صوله ... ولا لك يا جهول دوله
ويوم الحرب يستولى ... عليك راعى غنم ضانى
عن الإسلام تبات مارق ... وتحسب روحك الحاذق
إمامنا جعفر الصادق ... بريء منك يا شرانى
يا شرانى وزاد شرك ... واسمك عرّنا وعَرّك
وقبل ما ضرّنا ضرك ... يا عايش غير إنسانى

(*) **القنب الهندى** : نوع من القنب ينتج منه المخدر الضار.

كان نجم الدين الشعرانى يتودد إلى الإفرنج ويرسل لهم الهدايا، وفى أحد الأيام أرسل قافلة محملة بالهدايا إلى الملك البوهيموند ملك أنطاكية ولكن هذه القافلة وقعت فى أيدى رجال بيبرس بقيادة العيداروس التهامى الذى سأل "شميل" قائد القافلة عما يحمله فأنشأ شميل يقول:

أحمل فى قلبى هموم أحتار أعدها ... وفوق جِمالى مثلها أحمال
ما بين نجم الدين الطاهر النسب ... وبين الملك بوهيموند أنا المِرسال
أحمل هدايا المسلمين للصليبى ... كأنها جزيه لبيت المال
أحمل معايا ألوف شكاير ملانه ... لأهل أنطاكيه حبوب وغِلال
من بعدها الفقرا فى أرض الجزيره ... على رغيف العيش ترى الأهوال
واحمل معايا من الحرير الملون ... حرير يزود عالجميله جمال
واحمل علب ألوفات فواكه مسكره ... للناس ما يخطر طعمها على بال
ويا عيداروس أحمل قناطير مقنطره ... من مسك أصفر بالدينار مثقال
واحمل من البحرين عقود من لآلئ ... وأظن فى البحرين ما عاد لاآل
يا عيداروس يا خير من أستشيره ... قول لى حرام هالفعل ولا حلال
لولا يقولوا الناس خان الأمانه ... ولا يأمنوا بعدى إلى حمال
واكون سبب فى ضنك عيشة قراي ... بى وانا اللى فيهم ليا عم وخال
لا ابيع حمول الكل وأقبض فلوسها ... واسكن بلادًا تركب الأفيال

وبعد ذلك سارت القافلة إلى دمشق حيث يوجد بيبرس، وكانت مع قائد القافلة رسالة من نجم الدين الشعرانى إلى البوهيموند يقول فيها:

"إلى أخينا وحبيبنا وملاذنا ونصيرنا الملك المبجل والقيصر المفخم.. مصاحبته غُنم ومعاداته غُرم.. صهرنا الكريم الملك البوهيموند السادس ملك أنطاكية، أطال الله فى عمره وحرس ملكه

ونصره على أعدائه. أما عن رغبتكم فى مصاهرتنا وأن تكون شقيقتكم الأميرة مجدولين ضمن زوجاتنا فهذا مما يسر قلبى ويوافق رغبتنا، وبرهانا على قبولنا هذه الزيجة أرسلنا إليكم هذه الهدايا الصغيرة، جواهرها للعروس ولآلئها لأهل أنطاكية تفرقونها كما ترون، وإذا أرسلتم الأميرة مجدولين فأرسلوها مع أحد الأقرباء والحراس الأقوياء، وقبل قيامها أرسلوا إلينا بالحمام الزاجل لنفرش لها الطريق من عندكم لعندنا بالطنافس كما يليق بمقام الملوك".

بعد ذلك دار الحوار التالى بين بيبرس وشميل :

بيبرس: أنا عايزك تواصل رحلتك عادى إلى البوهميوند وتسلمه الرساله وكأننا لم نطلع عليها. وياريت تقول لى على فكره زينه تقنع البوهميوند عن سبب فض ختم خطاب الشعرانى إليه وأيضا ناخد بيها الغلال الموجوده بالقافله.

شميل : أقول للبوهيموند إن العنزه أكلت الخطاب وخلصناه من حنكها، وبعدها طلعت علينا فى الطريق لصوص أخدوا كل شيء.. الغلال والثياب والجواهر.

بيبرس: بلاش موضوع الجواهر،قول له الجواهر الحراميه غفلوا عنها، خليها يا شميل للأميره مجدولين، إحنا ناس عندنا ذوق برضه

شميل : إن جيت للحق هى تستاهل جواهر البرين والبحرين.

بيبرس: أنت شفت الأميره مجدولين يا شميل؟

شميل: فى كل سفره بتسلم علىّ وتمزح معى وتسألنى وين الكحل وين الخضاب؟(*)

بيبرس: هى حلوه يا شميل؟

شميل :اسمع يا سلطان ما أقول :

(*) **الخضاب** : ما يلون به الشعر من حناء وغيره.

عـــن مجـــدولين الأنطاكيـــه فى الســـفر قوافـــل الركبـــان توصـــف حســـنها
شـــعرا البـــوادى قـــالوا أشـــعار عنهـــا فى عبل عنتـــر عـــبس مـــا قـــال مثلهـــا
وعـــن ســـماع قـــالوا كلامهـــم فاســـتمع قولى أنا يا بيبرس أنـــا اللـــى شـــفتها
قوامهـــا يـــا محمـــود كالســـيف تســـحبه فى ســـاحة الأعـــداء ترعـــب قلبهـــا
وشـــعرها الوهـــاج ســـاطع مـــن لهـــب أحمـــر علـــى الخـــدين يقـــدح جمرهـــا
والخصـــر بالزنـــار(*) معقـــود يـــا بطـــل عقده مـــا كـــل النـــاس تـــدرى حلهـــا
وعيونهـــا الـــدعجاء(*) لـــما تـــأمرك بنظـــره يـــا ســـلطان تســـمع أمرهـــا

واصلت قافلة شـميل سـيرها إلـى أنطاكيـة، وهنـاك حكـى شـميل للبوهيموند ما سبق أن اتفق عليه مع بيبـرس مـن أن القافلـة تعرضـت للسرقة من اللصوص فى الطريق، وسلمه الجواهر واللآلئ فقط.

وكان البوهيموند قد دبر خطة شيطانية لخداع الشعرانى، وهـى أن يرسل له عروسا ليست أخته، بل هى إحدى الراقصات والمغنيات بحانات أنطاكية اسمها مجدولين، وأرسلها فى قافلة مع شـميل الجمـال تضـم شقيقه البرنس فيكتور ومجموعة من الوصيفات والحرس والحمالين.

وعندما وصلت القافلة إلى الشعرانى، ورأت مجدولين وجه الشعرانى أصابها الرعب منه،وأفضت إليه بسر خطة البوهميوند وأنها ليست أخته، وطلبت منه أن يتركها ترجع مع شميل الجمال بعيدا عن فيكتورفوافـق الشعرانى على ذلك بعد أن علم أنها ضحية ألاعيب البوهميوند، ثم طلب من الكاتب أن يكتب رسالة إلى البوهميوند يقول فيها يا أخـو الرقاصـه كشفنا لعبتك وسنجازيك على فعلتك وبعدها أنشأ يقول:

احمـل إلـى البوهيمونـد منـى رسـاله فيكتـور يـا صـعلوك يـا فيكتـور
وقـل لـه يـا بوهميونـد أنـتم بنانـه مواشـى عايشـه فى أراضـى بـور

(*) **الدعجاء** : السوداء.

(*) **الزنار**: حزام يشد على الوسط.

لـــما علـــيكم تـــدور الديابـــه ... مـا فى سـباع غيرنـا تـرد الجـور
واحنـا صـحاب الـرأى يـوم الوقـايع ... وفى المشوره إحنا صـحاب الشـور
ما كنـت أنـا أحسـب تلاعبنـى لعبـه ... أنـا الأسـد فيهـا وانـت التـور
مـن صـنف مجـدولين عنـدى صـبايا ... من عـام لعـام يـأتى عليهـا الـدور
فلـو أردت اللعـب فـاعلم بانـك ... نـازل معايـا بيـر بعيـد الغـور
ولو أردت خصـام نجيلـك جحافـل ... مـن المدينـه تطـردك ع البـور

مما سبق نرى أن عداء نجم الدين الشعرانى لأهل السنة جعله يتقرب من الإفرنج للاستعانة بهم فى القضاء على المسلمين الذين لايتبعون طائفته، وفى هذا يقول الشاعر:

أصـــلى علـــى نـــور الوجـــود محمـــد ... صـاحب مقـام عـالى وفضـل كبيـر
ضـــمن الكرامـــه والمعـــزه لأمتـــه ... مـادام علـى القـرآن خطاهـا يسـير
أمـــــر كتـــــاب الله أمـــــة محمـــــد ... مـا يكـون فى الكفـار معاهـا مصـير
ولا يستعين مسـلم علـى حـرب مسـلم ... بأمـــه محســـوبه مـــن الخنـــازير
يـا مصـاحب الإفـرنج كفـاك مهانـه ... إنـك مـن الطـرفين تعـد أجيـر
يكفـــاك مهانـــه وذل لـــما ملـــوكهم ... يعينـــوك انـــت ملـــك وأميـــر
إن عضـدوك بسـلاح فأنـت أسـيرهم ... أو سـاعدوك بـالمال فأنـت غفيـر
يـا مصـاحب الإفـرنج تسـلم بـدينك ... إذا تعـــيش جمّـــال تجـــر بعيـــر

■■ مسير الحى يتلاقى

كما سبق أن أشرنا عادت مجدولين من عند الشعرانى مع قافلة شميل الجمال، التى انتهت رحلتها فى دمشق حيث يوجد السلطان بيبرس، الذى استقبل شميل ومعه مجدولين بناءً على رغبتها. وبعد أن سمع بيبرس قصتها وعلم بما كان من دورها فى إحداث خلاف بين الشعرانى والبوهميوند بسبب فضحها لخطته فى تزويجها للشعرانى على أنها أخته، نادى بيبرس على الحاجة أم يعقوب كهرمانة القصر وطلب منها أن تضيف مجدولين وتعتنى بها.

لاحظت الحاجة أم يعقوب أن مجدولين تتميز بجسمها بعلامات ذكرتها بحوادث ماضية، وأشخاص كانت تعرفت عليهم وعصفت بهم حوادث الزمان وسيرتهم فى خبر كان وللشاعر هنا كلام:

أنا من صميم قلبى أصلى على النبى ... صلاه فى قلبى من عبيرها رياض
محمد اللى من كلامه وحكمته ... الناس بتنهل من معين فياض
بالرحمه أوصى للأسير اللى مالو ... عن منزله وعشيرته مُعضاض(*)
ما قريت عن الإفرنج فى الشام وأند ... لس إلا ودمعى من عيونى فاض
حرقوا العباد بالنار واللى فاتوهم ... عدو دينهم فى دماهم خاض
وأصبحت أنقاض بيوت الأصايل ... يسكنها من جنس البشر أنقاض
والكارثه الكبرى اللى حلت عليهم ... ما حل بالأنساب والأعراض
الأم تفضى عن حقيقة ولادها ... وياما يستر الاغضاف(**) والإغماض

(*) **معضاد** : سكين الجزار لتكسير العظم.

(**) **الاغضاف** : المقصود عدم الإفصاح.

وهاهى مجدولين وأم يعقوب يتسائلان ويتفاهمان:

أم يعقوب: أنا شايفه على كتفك اليمين خالين.

مجدولين: تمام.. واحد كبير وواحد صغير.

أم يعقوب: بتقدرى تشوفيهم ؟

مجدولين : نعم فى المرايه.

أم يعقوب: عجبى على هذا الزمان اللى بيدور بالناس مثل الفلك الدوار،فاكره قديش كان عمرك لما لصوص أنطاكيه خطفوكى؟

مجدولين : يمكن ثلاث سنوات.

أم يعقوب: فاكره اسم والدك إيش؟

مجدولين: لا أذكر اسم أبى لكن فاكره اسم أمى.

أم يعقوب: شو كان اسم أمك؟

مجدولين: أنيس.

أم يعقوب: اسم الله على عيونك يا أم يعقوب، اللى أشوفه مره عمرى ما أنساه.. انتى يا بنيتى بنت جارتى عشيرة عمرى، والدك كان اسمه "نعمان".. خلينى أضمك إلى صدرى، ياما رضعتك لما أمك كانت تتركك عندى، عيونك هى هى.. وشعرك هو هو المحنى بحنة ربانى.. تعرفى شو كان اسمك ؟..اسمك ثريا ووالدك كان يدللك وينادكى ريا، وأمك تناديكى يا ريرى.. الله يجازى هالزمان اللى بيلعب بالناس. قومى معى أخبر السلطان بيبرس بهالخبر السعيد.

ولما اطلع بيبرس على حقيقة الفتاة مجدولين، أحضر لها الشيخ ابن دقيق العيد وعقد لها مجلسا شرعيا أعلنت فيه إسلامها، وخصص لها بعض النساء الصالحات تعلمها فرائض الاسلام.

عاشت مجدولين أياما قليلة فى قصر بيبرس بدمشق وبهرتها الحياة

الإسلامية الهادئة المشرقة، فتبدلت ملامحها الشيطانية بأنوار ملائكية، وأحبها كل من فى القصر وطلبوا من بيبرس أن يبقيها معهم.

وفى أحد الأيام دخل بيبرس حديقة القصر فسمعها تترنم بهذا الكلام :

بيبـــرس إحنـــا حابينـــه دا ملـــك إحنـــا مالكينـــه
إذا كـــان إحنـــا شـــارينه بـــالروح نبقـــى كاســـبينه
بكـــره يـــدخل أنطاكيـــه يرمـــى البوهيمونـــد فى داهيـــه
اللـــى إحنـــا مـــش عاجبينـــه بكـــره نبقـــى ماســـكينه
بوهيمونـــــد والشـــــعرانى عـــاملين حـــزب الشـــيطانى
الأول ولـــــــلا التـــــانى إحنـــا إن شـــاالله غالبينـــه
الأرض العربـــــى بتاعنـــا إحنـــا لوحـــدينا تســـعنا
اللعنـــــه فـــــوق اللعنـــــه عالنـــــاس المحتلينـــــه

عاد بيبرس إلى القاهرة وكانت مجدولين ضمن الحاشية، حيث طابت لها الحياة فى القصر السلطانى، وانضمت إلى الفريق الذى يعمل فى تجهيز البريد وترجمة الرسائل، وحمدت الله أن وضع فى طريقها ملكا مسلما أنقذها مما كانت فيه ويوفر لها الحماية.

■■ المغيبون

جلس الظاهر بيبرس ذات يوم بدمشق مع وزيره زين الدين لمناقشة كيفية مواجهة الأخطار التى تواجه الأمة فى ذلك الوقت، والتى أضيف إليها الخطر المتمثل فى الطائفة الإسماعيلية بزعامة نجم الدين الشعرانى، الذى يقيم علاقات مع الصليبيين ويتآمر معهم على المسلمين السنة، وقد علم بيبرس أن نجم الدين الشعرانى قد جند شاباً من طائفته اسمه "عطون" لقتله بعد أن وعد هذا الشاب بأنه سيدخل الجنة إذا ما قتل بيبرس.وبالفعل حاول عطون قتل بيبرس بعد انتهاء الصلاة بالجامع الأموى ولكنه لم يتمكن من ذلك وتم القبض عليه ووضع بالسجن، وأراد رئيس الشرطة أن يقدمه لقاضى دمشق ليحاكمه بتهمة الشروع فى قتل السلطان، ولكن بيبرس طلبه فى قصره ليحادثه ويتعرف منه على مقدار الدعوة الإسماعيلية فى نفوس الناس وأى طبقة من الناس استجابت لها؛ فأمر بيبرس بأن تحل قيود عطون ويدخل إليه معززا مكرما كأنه ضيف ثم دار بينهما الحديث كالتالى:

بيبرس: يا سيد عطون.. أنا عملتلك إيه عشان تقتلنى؟

عطون: أقتلك لأنك كافر.

بيبرس : مين قالك إنى كافر؟

عطون: الإمام نجم الدين الشعرانى

بيبرس: ماقالش ليه أنا كافر؟

عطون: قال لى إنك كافر لأنك قاصص لحيتك طول قراطين وحالقها من فوق الخدين.

بيبرس: طيب وطول ذقن الإمام نجم الدين الشعرانى قد إيه؟

عطون: طولها شبرين أى والله شبرين.

بيبرس: كام عمرك يا عطون ؟

عطون: أنا ما أعرف عمرى كام.. خمسة عشر عام ولا عشرة أعوام ولا ثلاثين عام.. خلونى أفتكر، لما هولاكو حرق بغداد كنت أقف قدام العنزه وانطحها راس براس، لا هى أطول منى ولا أنا أطول منها.

بيبرس: خلاص عرفنا يا عطون.. اللى يقدر يناطح العنزه يكون عمره ثمان سنوات أو تسع سنوات، وحريق بغداد مر عليه الآن عشر سنوات، معنى هذا يا عطون إن عمرك فى حدود ثمانية عشر أو تسعة عشر عامًا.

عطون: ما يهمنى أعرف عمرى.

بيبرس: عندك حق.. خلينا فى الجد.. الشعرانى وعدك لما تقتلنى إما يعملك سلطان وإما يدخلك الجنة.. السلطنه راحت منك لأنك ما قدرتش تقتلنى فاضل الجنه.. انت شفت الجنه؟

عطون: أيوه شفتها بعينى مثل ما انا شايفكم الساعه.

بيبرس: احكى لنا عنها شويه يا عطون.

عطون: هذا سر لا أبوح به ولو قطعتونى قطعه قطعه.

بعد ذلك توجه بيبرسب الحديث إلى الوزير زين الدين قائلا: أنا فى حيرة من أمر هؤلاء الناس، كنت أعرف إنهم أهل نجدة.

الوزير: كانو أخيار لما كانوا طائفه صغيره، كانوا بيجتهدوا لتحسين سمعتهم حتى يقال أنهم فعلا أحفاد الإمام جعفر الصادق، وكان من زعمائهم سليمان الجاسوس وأسد الدين العابوس.

بيبرس: الرجلين دول كنت أحبهم يا زين الدين، وماكنتش أتوقع إن أخلافهم وزراريهم يتآمرون على قتلى.

الوزير: لأن عددهم كتر وقلاعهم فى أصقاع متعددة بعيده وأحسوا بأنهم جديرون بامتلاك البلاد الإسلاميه كلها أو بعضها.

بيبرس: زى القرامطه.

الـوزير: تمـام.. وطـريقتهم هـى طريقـة القرامطـه.. الاغتيـال والتخريب.

بيبرس: ظروفنا اللى إحنا عايشين فيها تجعل الناس دول أخطر على المسلمين من القرامطه.. أيام القرامطه ماكنش فيه تتـار ولا صـليبيين يضربوا المسلمين من الشرق والغرب.

تبين للسلطان بيبرس أن جماعة الإسماعيلية أو الباطنية أكثر ممـا كان يقدر، وآمالهم أبعد مماكان يظن وأنظمتهم السـرية أخطـر ممـا كان يتصور، وكانت شرطته تعتقل المشتبه بأمرهم أفراداً أو جماعـات وتضعهم معا فى قلعة دمشـق ومعهـم مـن ينقـل أخبـارهم إليـه، التـى أوضحت أن الشباب الذين انخدعوا بأكاذيب نجم الـدين الشـعرانى مـن الأميين الجهلاء المحرومين من المعرفة والثقافة ؛ولهذا أمر بيبرس أن يعاملوا بالرفق، ومع ذلك كان هؤلاء الشباب المخـدوعون والمغيبـون يعتبرون أن عطون نجمهم اللامع ويغنون ويرددون:

عطـون يـاللى مـا ولـد إلا أبـوك مثلـك أسـد

يخشـاك سـلطان البلـد ويحبسـك أيـا عطـون

ويقيـــدك أيـــا عطـــون

عطون يا ساكن الحبس ياما اتحبس عنتر عـبس

يا خير مـن بيـده لـبس قيد الحديد أيـا عطـون

زرد الحديـــد أيـــا عطـــون

كـل الصـبايا يـا سـبع تسـتنظرك حُـول النبـع

ما فى خلافـك فى الربـع يمـلا لهـن يـا عطـون

يحـــلا لهـــن يـــا عطـــون

وكان أهل المحبوسين يجتمعون كل يـوم علـى بـاب السـجن هـم وبقية الجماهير ليعرفوا أخبار هـؤلاء الـداعين إلـى المـذهب الجديـد، وكان ضمن هؤلاء أم عطون التى كانت تولول وتقول:

يـا دلـى م اللـى دهـانى ... مـن جنـة الشـعرانى
يـا أمـى لا تلـومينى ... شـباب وشـفت بعينـى
أجسـام الحـور العينـى ... تحـت التـوب الحُرانـى
يـا أمـى ابكـى عليـا ... م الصـبحيه لعشـيه
جبـت بلايـا بعنيـه ... وانا غيـرى كـان الجـانى
يـا دلـى مـن نجـم الـدين ... واسـمه والله عدوالـدين
مـن خمـر الهنـد سـقانى ... وأهلـى ودينـى نسّـانى
على قبـرى طـولّى وقـولى ... يـا ويـل ابنـى ويـا ويلـى
راح محـروم مـن الـدنيا ... ولأحزانـى خلانـى

■■ جَوان

الجاسوسية صناعة وفن من الفنون العسكرية الرفيعة، إذا كان الجاسوس يخدم أمته ويرمى نفسه فى المهالك لكى يتعرف على أخبار العدو، ويفسد تدبيره ويحبط أعماله. والجاسوسية فى الوقت ذاته جريمة أهون حكم عليها بالإعدام إذا كان الجاسوس يعمل ضد أمته وينقل للعدو أخبارها ويطلعه على أسرارها. ولكن فى الناس من يحترف الجاسوسيةليشبع من الملذات ويعيش عيشة الملوك والأباطرة كصاحبنا " جوان " إبليس هذه الملحمة وشيطانها الكبير،الذى استغل كراهية الإفرنج للعرب فتطوع لخدمة هؤلاء الإفرنج فصدقوه وكانوا يرسلون أكياس الذهب مع الرسل، فيذبح الرسل ويقول لمن أرسلوهم أن اللصوص ذبحوهم فى الطريق وأخذوا الأموال، فيرسلون له أموالا غيرها وهكذا يعيش على لويس التاسع الدرويش وأمثاله، وفى هذا يقول الشاعر:

يا باعت الجواسيس تقضى مصالحك ... ابعت على الجواسيس كمان جواسيس

السعى بالوشايات مهنه خسيسه ... يقبل عليها كل ندل خسيس

واللى يجيب لك سر غيرك يروح له ... بسر من عندك عزيز ونفيس

واللى بتعطيه كيس أجرة سعايته ... يعطيه عدوك أجر خمسين كيس

شوفوا جوان(*) اللى صبح من زباينه ... ملوك أروبا من فيليب ولويس

يبوس أيادى الحسان الأوانس ... وينقى منهم كل شكل أنيس

ومسكنك يا جوان وكل معيشتك ... بلاش وبايت كل ليله عريس

(*) **جوان** : اسم فارسى معناه الشاب، الفتى.

يشـولك السـمان علـى خمـر قبـرص ومعاك على الألحـان جـوارى نمـيس
ولا يهـف عليـك تـزور الكنـايس ولا تهـزك رنـة النـواقيس
ياللى على الجواسيس تنفق فلوسك استنظر الإخفـاق والتفلـيس

وقد جاء فى السيرة أن جوان ينتسب إلى "عقبة بن مثاب أو مصعب" اللعين محبوب الشيطان فى الأزمان الغابرة، وعقبة هذا ينتمى إلى مجموعة من العرب تعرف ب " بنى سليم" وكانوا مسلمين، ولكن عقبة أصبح مشركا، وظهر من ذريته من هو ألعن منه.

وقد تفنن رواة السيرة فى رسم صورة جوان، فجعلوه صورة مجسمة لإبليس، فعند خروجه إلى الدنيا لمع البرق وهطل السيل، وخسف القمر، وأظلمت الدنيا. وجاءوا له بالمراضع فأنكرها جميعا، فأتوا له بالغزال والبقر فنفر منها، ثم حملوه إلى دير منعزل فيه كلبة ناحلة الشعر، فأقبل عليها ومازال يرضع من لبنها، حتى دب على الأرض ومشى، كما صوره الرواة أيضا على أنه كان غاية فى القبح، أبطش المنخر، رفيع العنق،كبير الرأس،شنيع المنظر، وكان خلقه كصورته كثير النفاق ولا يكف عن الأذى، ولايجلس مع قوم إلا ويفسدهم ويلقى بينهم الفتن. وبالجملة فانه ولد بفعل شر ورضع من كلبة، فجاءت أفعاله نجسة، وقد درس النصرانية، وسائر العلوم الخفية فى أحد الأديرة، وكان من عادة سكان الدير أن ينزلوا إلى البحر كل عام، فيقطعوا الطريق على الحجيج ويأسروهم، وكان من بين الأسرى رجل صالح من العراق اسمه "صلاح الدين العراقى" وهو صاحب فضل وإشراق، يتفنن فى علوم كثيرة فى الحديث والتفسير، وله مشاركات فى الأدب والمنطق والعروض وسائر العلوم الدينية والدنيوية، وقد تعلم منه جوان سائر العلوم من باب محاربته للمسلمين، ثم قتله جزاء الخير بالشر ثم لبس لباسه، ونطق بلسانه وحكم بمنطقه، وأخذ يحتال على المسلمين بما تعلمه من هذا الشيخ.

وكان جوان يعيش فى حارة الروم بالقاهرة مع مساعده ويدعى "البرتقش" الذى لم يكن شريرا بنفس درجة جوان، ولكنه كان

يساعده فى كل شر يأتيه. وكان جوان يتخفى تحت أسماء مختلفة مثل الشيخ حسن العراقى أو الخواجة سمعان أو يتقمص شخصية امرأة وذلك حسب ظروف الموقف الذى يمر به. وتحكى السيرة أن بيبرس كان يعلم بحقيقة أمره ولكنه كان يتركه لكى يتعرف عن طريق مراقبتهعلى نوايا الإفرنج تجاه بلاد المسلمين، وأفضل وصف لهذا الشيطان ما يقوله هو عن نفسه حين يخلو مع كأسه:

أنا طول حياتى من شبابى لمكبرى ... أعيش والشيطان معايا حليف
إذا اشتهت نفسى بنات الأباطره ... أسعفت منهم كل شكل ظريف
بنات فى عمر الورد باست إيديا ... وإيديا أخشن من قحوف الليف(*)
وإذا اشتهيت يا جوان بنات المشارق ... دخلت فى العيله فقى وعريف
فى كل شرع وديـن عندى دفاتر ... صنفت فيها أجمل التصاريف
أنا أكون فى يوم أجمل مسامر ... وأكون فى أيام وحش ومخيف
وأعشق البلدان وفى كل مرحله ... أنا أحسن اللى يحسنوا التصريف
أقنى الملاح الغيد من الترك والعجم ... أشكال عديده من سمين ونحيف

كما كان لجوان منطق عبثى فى الحياة توضحه الكلمات الآتية:

الأنس كله والحظ كله ... يكون فى زمن المغفلين
وناس تقول لك الدنيا سا ... يره وإحنا فيها متسيرين
يحكمنا كردى وتركمانى ... وإحنا لحكمه مستمثلين
ولما تحلف انك خليفه ... يباتوا جمعا مصدقين
وبجبّه بيضا وعمّه خض ... را وراك يصلوا مسبحين
أربع جوارى تعقد زواجهم ... وعشر سرارى مسرحين
وأما بنت عشره وتلاته ... غرض الملوك المتوجين

(*) **قحوف** : جمع قحف، **والليف** : قشر النخيل الذى يجاور السعف

وسوف نستعرض فيما يلى بعض مشاهد الصراع بين جوان وبيبرس، وأيضا مغامرات جوان اللعين التى لاتنتهى جريا وراء ملذاته ومتعته وشغفه باقتناء الصبايا الحسان، حيث كانت تنتهى كل مغامرة بمقطوعة شعرية حسب ظروف المشهد، ولأن جوان كان يحمل حقداً دفيناً لبيبرس فانه كان يصحو وينام ولسان حاله يقول:

عايش سعيد يا بيبرس فى زمان مظـ ـــلم تقل فيه المعرفه والنور
لو كانت الأقدار بالعدل تعطى لكان نصيبك طرشجى بهاجور
كيف مؤثرين الملك ركزت جتتك من الأنايا وللا من عصفور
الدنيا يا محمود لو كان مثالك فيها يكون سلطان تزول وتغور
ملوك بنى أيوب وهمّ أعالى كا نوا على عروشهم شموس وبدور

■■ بحر قزوين

تحكى السيرة الظاهرية أن الأمير ركن الدينبيبرس قبل توليه السلطنة كان فى زيارة لبركة خان زعيم القبيلة الذهبية التترية المسلمة، والتى تقطن المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا وبحر قزوين، وذلك للترتيب للحرب ضد هولاكو لإضعافه وشغله عن مهاجمة البلاد الإسلامية، والحقيقة أن بركة خان لم يتقاعس أبدا عن ذلك؛ نصرة لدين الله، وقاتل هولاكو وهزمه. وفى أثناء الزيارة هذه وجد بيبرس أن جوان قد سبقه إلى هناك ليتجسس عليه، وفى سبيل ذلك أنفق مالا كثيرا وعاث فى هذه المنطقة فسادا، فطارده بيبرس حتى ترك تلك البلاد، ثم أنشأمخاطبا بحر قزوينيقول.. صلوا على طه الرسول:

بعـد حمـد الله أصـلى علـى النبـى ... محمـد المبعـوث إلـى العـالمين
محمـد الآمـر بكـل فضـيله ... واللـى نهـى عـن كـل فعـل مشـين
والمسـلم اللـى لا يحـارب الرزايـل ... مكتـوب عنـد الله غيـر أمـين
يـا بحـر قـزوين وانـت طـاهر مطهـر ... مـن خيـر بحـار الأرض يـا قـزوين
سـفاين القرصـان مـا شـقت عبابـك ... ولا اعتلـى موجـك غـزاة ملاعـين
يصـعب علـىّ لـما ييجـى يدنسـك ... مجـرم لئـيم مـن أسـفل السـافلين
نشـر علـى شـطيك رايـات الخناقـه ... منهـا اسـتجار الحـوت والـدرفين
وأنـت اللـى مـن حُولـك رأينـا أئمـه ... فى الشـرع كـانوا كلهـم أسـاطين
واليـوم يـا قـزوين أودع شـطوطك ... والنـاس علـى أعراضـهم آمنـين

■■ خيبة الأمل

اهتم بيبرس بإنشاء أسطول بحرى للدفاع عن شواطئ البلاد؛ ولهذا الغرض أمر بتصنيع عشر سفن إضافية، وبعد إتمامها أقيم سرادق للاحتفال بتدشين هذه السفن بمنيل الروضة، وكان اللعين جوان حاضراً فى هذا الاحتفال، ولكنه كان متخفيا فى شخصية سيدة تدعى الحاجة أم عزيزة المغربية بعد أن وضع كمية من السم القاتل- فى لمح البصر-بيديه ومئزره الذى يلبسه، وبعد انتهاء الاحتفال تقدمت الحاجة عزيزة المغربية المزعومة لتسلم على السلطان بيبرس، وعندما مد بيبرس يده ليسلم عليها سمع صرخة مرعبة وصوت يقول "حاسب" ثم ظهر الشيخ شيحه جمال الدين بينه وبينها وحال دون إتمام السلام باليد؛ وبهذا نجا بيبرس بعناية الله ورعايته. وانطلقت السفن العشر الجديدة فى نهر النيل ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط فى رحلة استكشافية.

بعد ذلك عاد جوان حزينا إلى منزله بحارة الروم، وأول شيء فعله هو أنه غسل يديه بالخل والليمون وحرق المئزر الذى كان يرتديه، ثم جلس وملأ كأسه وصعدت أنفاسه، وهاهو ينشد ويتكلم بل يتأوه ويتألم :

بيبرس يا صعلوك ... يا أرخص مملوك

ياللى ما تعرف أبوك ... أنا هاوريك الويل

أنا عندى أهوال ... ما تحملها جبال

هتبان فى الأفعال ... إن ما نفعشى القول

منها يا مشئوم ... شيء من صنع الروم

فى التوب المسموم ... والمنسوج عالنول

هتشوف يا غلبان ... ملاعيبى ألوان

يـــا عامـــل ســـلطان وعامـــل لـــك أســـطول
يـــا أزعـــر زعـــرور عامـل كـام شـخطور(*)
مـا يجـوش حـق بخـور لكنيســـة ســـان بـــول
أنـــا ويـــاك اليـــوم وكـــمان بعـــد اليـــوم
وأمـــا يحـــول الحـــول بعـــده يجيلـــك حـــول

وكان جوان قد أعد كمية من "الغُريبة" المعجونة بالسمن والسكر مضافًا إليها سُم قاتل، وأعطاها لإحدى قريبات صبى بحار يعمل على هذه السفن الجديدة وذلك كهدية يأكل منها هذا الصبى مع رفاقه البحارة، فيتسممون ويموتون وتتوه السفن فى البحر ويفقدها بيبرس. ولكن الله خيب ترتيب جوان فعندما أخرج الصبى الصرة التى بها الغريبة ليأكل منها مع الرفاق فى وقت الاستراحة بأحدالموانى، هيأ الله لهم منقذا، حيث ظهر ولى الله الشيخ شيحة جمال الدين وأخذ الصرة وألقى بها فى البحر، وبذلك نجا البحارة من الموت وعادوا بالسفن بعد الرحلة المقررة سالمين. عندما علم جوان بذلك جن جنونه وأخذ يردد:

(*) **شخطور** : قارب.

بيبـــرس يـــا فرحـــان بدســـتة فلايـــك ... إيش يجعلـك تقـرب مـن الأسـاطيل
عنـــدك مراكـــب رز كانـــت كفايـــه ... وهـــى ســـارحه فى ميـــاه النيـــل
عملت لك يـا بيبـرس عشـرة قـوارب ... فى بحرنـــا يـــبلعهم الـــدرفيل
صنعه فى بحـر الـروم مـا تخـص غيرنـا ... وإزاى هتوصـل وانـت فيهـا دخيـل
جاعـل جنـودك مـن ولاد الحـوارى ... اللاعبـــين بـــالآل والشـــخاليل
روح اسـأل الأمـواج إن كنـت هايـب ... تخبـــرك إنـــك حقيـــر وذليـــل
تعـيش فى وكـر الضـب فى البـر مختفـى ... يـدوس عليـك الضـبع قبـل الفيـل
أسطول لويس يا بيبرس فى قلـة العـدد ... عشر تـلاف غليـون بصـارى طويـل
تقف ما بـين البحـر والسُـحب والسـما ... والجـــن مـــا تلقـــى إليهـــا ســـبيل
وفين تروح ياللى قصاعك من الخشب ... والقصعه إيـش تحمـل وإيـش تشـيل

■■ جوان يندب حظه

جاءت الأخبار إلى السلطان بيبرس بأن التتر بعد أن احتلوا مدينة حلب قد أغاروا على مدينة حماه فاحتلوها ويستعدون للهجوم على مدينة حمص؛ فخرج بيبرس بجيوشه لملاقاة التتر وصد هجومهم. فى هذا الوقت ادعى جوان - المتخفى تحت اسم الحاجة أم عزيزة المغربية – بأنه سوف يغيب عن مصر شهرين أو ثلاثة لزيارة أولياء الله الصالحين بالعراق ثم الذهاب بعد ذلك إلى مكة المكرمة لكى يعتمر. وفى الواقع كان اللعين جوان ذاهبًا إلى أنطاكية لحضور عرس "سموت" ابن هولاكو على بنت الملك فيليب الإفرنجى. وبعدها يتجه إلى ميدان المعركة بين بيبرس والتتر ليقاتل فى صفوف التتر ضد بيبرس، وانطلق جوان فى البر الفسيح يسابق الريح وحلا له أن يقول وكل ما يقوله غير معقول:

اجرى وسابق الريح ألا يا جوادى

محال بعد اليوم تكون مسبوق

وانا فى حارة الروم من فوق فراشى

سمعت يا هلاوون صوت البوق

من جيشك اللى صار بين السما والأرض

زى الطوفان يردى الجيوش ويسوق

على شط قزوين العواصم جعلتها

تبكى ماضيها فى غروب وشروق

وأذربيجـــــان المنيعـــــه بيبانهـــــا

جعلتهـــا حفنـــة رمـــاد مســـحوق

وأهـــل الجزيـــره عـــالفرات ودجلـــه

بيشـــربوا منهـــا عِكـــر مـــا يـــروق

جايلك آيا هلاوون بيبـرس اللـى أصـله

مملـــوك يـــا هربـــان يـــا معتـــوق

معـــاه مـــن الجرابيـــع همـــا وهـــوه

عـــــددهم يـــــتحط فى صـــــندوق

أنا جايلـك يـا بيبـرس أحضـر جنازتـك

مشـــــلول ولاّ فى قـــــزان مســـــلوق

وأسكر فى عـرس الخـان والبَـب سـكرا

اللـــى يـــدوقها مـــا يريـــد يفـــوق

ويومهـــا يـــا مـــا نفســـى تبلـــغ مناهـــا

وقلبـــى يبـــرد مـــن زمـــان محـــروق

جالك أيا هـلاوون بيبـرس اللـى أصـله

مملـــوك يـــا هربـــان يـــا معتـــوق

معـــاه مـــن الجرابيـــع هـــمّ وهـــوّ

عـــــددهم يـــــتحط فى صـــــندوق

أنا جايلـك يـا بيبـرس أحضـر جنازتـك

مشـــــلول ولـــــلا فى قـــــزان مســـــلوق

وأسكر فى عُـرس الخـان والبَـب سـاكرا

اللـــى يـــدوقها مـــا يريـــد يفـــوق

ويومهـــا يامـــا نفســـى تبلـــغ مناهـــا

وقلبـــى يبـــرد مـــن زمـــان محـــروق

وصل جوان إلى أنطاكية، وجلس فى السرادق المنصـوب للاحتفـال بعُرس سموت ابن هولاكو وبنت الملك فيليب الإفرنجى، وأخذ يتمايـل مع أنغام الأغنية التى تقول:

تتـــرى ســـموت عـــريس مبســـوط

عروسه بنت فيليب

والمهـــر معـــاه حلـــب وحمـــاه

وحمص قريب

تتـــرى فرحـــان عـــريس ســـلطان

وعمه خان هلاوون

أعظمهـــا خـــان ولا نمـــــــرود

ولا فرعون

لســـــه قـــدام بـــلاد الشـــام

ولسه عكا وصور

وكـــمان بيـــروت ومصـــر كـــمان

دا تار منصور

بعد ذلك ذهب جوان إلى ميدان القتال بين جيوش بيبرس من جانب والتتر الذين يحاولون الاستيلاء على مدينة حمص من جانب آخر، ولكن لسوء حظه هُزم التتروأخذ هو أسيراً ضمن أسرى التتر الذين قاتل فى

صفوفهم، ورغم أنه كان متخفيا، إلا أن بيبرس تعرف عليه عند استعراضه للأسرى. وأراد بيبرس أن يزيد من حسرته، فجعله يحضر عملية توزيع الغنائم على الجنود الذين اشتركوا فى القتال، ومن هذه الغنائم الفتيات التتاريات الحسناوات، فتأزم جوان وزادت حسرته،وهو من هو فى عالم الفجور ومعروف عنه شغفه بالفتيات الحسناوات وترنم بهذا الكلام :

لو تسمع الأشعار فى الحسن والغزل ... اسمعها من محروم أو منحور
يشاهد الجميلات رايحه لغيره ... وهو صدره كالجحيم يفور
مُعدم فلا بالمال يبلغ مراده ... ولا مُحارب له نصيب موفور
آه يا بنات قزوين يا للى وجوهكم ... صيفا شتاءً ورد فى بنور
ياللى لكم أجسام ماتلين وتنتنى ... إلا لفارس فى شبابه جسور
ياللى عيونكم فوق خدودكم ... مكسوره والناظر لها مكسور
ياللى ضفايركم على الضهر فتنه ... محلا شمايلكم وجوه وضهور
رايحين لخل جديد وفى يوم وليله ... نسيتم المأسور والمغدور
نعيم وكاسه يدور هنيئا مريئا ... للى على أعداه يبات منصور

■■ خناقة الجواسيس

كما سبق أن ذكرنا، بعد أن تم القبض على سنجر الحلبى تم إرساله مكبلا بالحديد إلى القاهرة، وتم عمل زفة تجريسة له بشوارعها، وكان جوان جالسا عند تاجر من تجار بين السورين يدعى أبو لطيفة، وهو وإن كان من أكبر التجار الذين يستوردون الأجبان البلقانية والسجق القبرصى والبسطرمة الرومية، فإنه أيضا من كبار رجال المخابرات عند ملوك الإفرنج، وعن طريقه تصل المرتبات إلى صغار الجواسيس والعملاء. وكان جوان يحسب له ألف حساب ويتظاهر أمامه بالوقار والصلاح والتفانى فى الخدمة بكل أمانة وإخلاص. وبعد أن مر موكب زفة سنجر دار بينهماالحوار التالى.

جوان: بقى دول ناس.. بقى دا سلطان اللى ينتقم من أعداؤه بالشكل دا؟

أبو لطيفة: هادى حاجات تخصهم يا شيخ جوان خليهم يجرسوا بعض..ياكلوا بعض.

جوان:لكن ياابولطيفه الجدع دا جدع محترم عشان كدا ولاه السلطان قطز على دمشق.

أبو لطيفة: هذا ليس علامة على الجدارة والكفاءة، السلطان قطز ما كان عنده ملكة التقدير ووضع الأمور فى نصابها، كان اللى يخطر على ذهنه يفعله مثل ما يقول الشاعر:

فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

جوان: أنت نظرك أصح من نظرى.. أنا قلت إن سنجر داولد مقدام يهجم على الأخطار.. يعنى نعتمد عليه.

أبو لطيفة: شفته أنا وباعرفه مليح، طوله ستة أقدام ووجهه مشرب

بالدم وشواربه ملتويه على خديه، وهذا هوه اللى جعل السلطان قطز يعينه على دمشق، أما فى العلم والتدبير ما يحصل ظفر فى قدم بيبرس.

جوان: بيبرس دا عمره قصير.. شوف كام ملك خارجين عليه، بكره هيلاقى نفسه لوحده.

أبو لطيفة: الملوك الخارجين على بيبرس كلهم من نوع سنجر.. شباب بدهم ياكلوا ويشربوا ويتمتعوا، أما الملوك المعتبرين اللى احنا نعتمد عليهم واللى ممكن نستفيد منهم هم: الملك المغيث ملك الكرك والملك شيركوه ملك حماه، هؤلاءأصحاب حق فى العروش الإسلامية لأنهم من سلالة صلاح الدين الأيوبى.

جوان: تفتكر دول هيكونوا فى صفنا فى يوم من الأيام؟

أبولطيفه: أبداً ما فكرت فى هذا، لكن فايدتنا منهم إنهم يضربوا بيبرس؛ لأنهم لايطيقون المماليك يحلون مكانهم فى حكم البلاد الإسلامية.. شو قطز شو بيبرس شو قلاوون شو سنجر.

جوان:نظرتك صايبه يا منشير وسياستك عليا، أما أنا بقى فراجل باشتغلعلى قدى، لو سمحت أعطينى مرتبى أى ال ٥٠٠ دينار.

أبو لطيفة: هل أحضرت معك البطاقه ؟

جوان: آه.. نسيتها.

أبو لطيفه: المره اللى فاتت تهاونت معاك لكن هالمره لن أتهاون معك، عندى تعليمات من قبرص ألا أعطى فلوس إلا لمن يحمل بطاقه.

جوان : كدا؟ أنا يا ابولطيفه هتجينى مرتباتى من قبرص وباريس وجنوه ومرسيليا وفوقهم بوسه كمان.. يغوروا ال٥٠٠ دينار اللى هييجوا من وشك.

عاد جوان إلى منزله بحارة الروم فلاحظ مساعده البرتقش الغضب على وجهه؛ فسأله عن سبب الغضب فحكى له ما حدث من "أبو لطيفة" ثم أضاف إنه علم إن فيه نظام جديد اتعمل فى باريس، عملوه جماعه

نصابين بيلعبوا فيه على الراجل الغلبان اللى اسمه لويس التاسع، قالوا نعمل جمعيه كبيرة مفيهاش أكتر من تلات أعضاء يعرفوا بعض، وبالشكل دا ينفذوا أوامرنا من غير ما يتكتلوا ضدنا وتتجمع الفلوس فى إيديهم ويخدوها لنفسهم ويقولوا صرفناها فى الحرب المقدسه.بعد ذلك قال جوان مترنمًا:

على آخر الأزمان يا بولطيفه

جوان يقدم للجناب حساب

يملك جوان قصور فى بلاد أوروبا

مثلك ما يتعين بها بواب

جوان فى فن الجوسسه والمخابره

ربى تلامذه ألوف كهول وشباب

على ملوك الروم والترك والعرب

أدخل بلا استئذان من الحجاب

ولو طلبت المال تجينى شكاير

مقفوله بالأختام لحد الباب

ملوك أوروبا يبعتولى بناتهم

تاخد دروس فى الدين والآداب

حتى عِدايا يشهدوا لى بأنى

عالم وعلمى محيط بكل كتاب

آه من زمان يفضّل الأرض عالسما

فى الرفعه ويخلى السحاب تراب

واقــف علــى بابــك وأطلــب مرتبــى
وتردنـــــى يـــــا أزرق الأنيـــــاب
ملـــوك أوروبـــا حملـــونى الأمانـــه
وتعامـــــل الأعـــــوان والأحبـــــاب
وأنــا اللــى هــاورى القــوم يــا بولطيفــه
إنــك فى ســوق بــين الســورين نصــاب

كان للطريقة التى تعامل بها أبو لطيفة مع جوان تأثيراً كبيراً فى حالته المزاجية، وبدا لفترة عصبيا وانعكس ذلك على علاقته بمساعده أو صبيه البرتقش، مما جعل البرتقش يتذمر ويبدى امتعاضه وتمرده عليه. وفى أحد الأيام جاءت الخادمة شميسة إلى حجرة البرتقش لتوقظه من النوم ليرتب حجرة معلمه جوان، فرفسها برجله وهو يلطم ويعدد بهذا الكلام:

مــافيش شــاعر يغنــى لــى بغنــوه ويلــى يــا ويلــى
مــافيش ندابــه تلطــم لــى وتــتكلم علــى غلبــى
يــا ويلــى يلــى طــول عمــرى أجرجـــر فى هلاهيلـــى
ولـــما يـــا جـــوان تعـــرق ليلاتــى فى الفــراش تغــرق
وانا اللى أنشر وانــا اللــى أحــ ـرق ملاية الفرش يــا خليلى
عجيبــه لــما أكــون ســيدك وغيــرى حــد مــا يفيــدك
واجعــل روحــى فى إيــدك تجرجرنــى وترخــي لــى
أنــا اللــى عشــت فى جهلــى وناســى جــزء مــن عقلــى
واقــول للــنفس علــى مهلــى نصــيبى برضــه هيجينــى

بعد أيام من هذه الواقعة، انصلح الحال بين جوان وصبيه البرتقش وعادت المياه إلى مجاريها، واتفقا على خطة جهنمية لسرقة أموال أبو لطيفة من منزله، وبالفعل تم تنفيذ الخطة ونقلت الأموال إلى منزل جوان بحارة الروم، وهنا أنشأ يقول:

إبليس ورايا ... يتبع خطايا
وفى القضايا ... يسمع كلامى
يا بو لطيفه ... يا بو دقن ليفه
يا ربع مصرى ... ويا ربع شامى
من غير ما اصلى ... من غير ما اسلم
من غير ما اكدب ... لك احترامى
المرسيليه ... جعلوك عليا
ريس فى إيدك ... تمسك لجامى
أنا دست دوسه ... وانت فى حوسه
أنت وشميسه ... تخفى الأسامى
فن السياسه ... عايز كياسه
عأيز مدردح ... عايز حرامى

■■ جوان وعشق الصبايا

جرت العادة أن يرسل الإفرنج كل عام مفتشا ليفتش على الجواسيس والعملاء المنتشرين بالبلاد العربية والإسلامية، ليعرفوا المجتهد منهم من المقصر والمخلص من الخاين. وكان أبو لطيفة - التاجر فى بين السورين - من الرؤساء الذين يعتمد عليهم المفتش ويصدق التقارير التى يكتبها، وهو الذى كتب عن جوان أنه ينفق الأموال على الراقصات، وكانت النتيجة أن الإدارات العليا فى باريس ومرسيليا حولت مرتب جوان إلى أبو لطيفة وتركت له الحرية فى دفع المرتب أو عدم دفعه بحسب ما يرى من سلوك جوان.

وكان المفتش رجلاً من العملاء الذين أجروا أنفسهم للإفرنج ورضوا عنه ورضى هو عنهم، واسمه أبو نصر البعجونى، وعند زيارته لمصر أحضر معه ابنته أنجيل ذات الأربعة عشر عاما؛ لتتفرج على مصر.ورتب جوان لاستقبال المفتش فى منزله، وحين رأى جوان "أنجيل" بصحبة والدها سقط قلبه بين رجليه وكاد يغشى عليه غير أنه صبر وتماسك، فقد كانت فتاة جميلة بحق.

أمر جوان مساعده البرتقش أن يحضّر الغداء من الخبز والدقة والفجل والزيتون ليبرهن للمفتش على أنه يعيش عيشة الصالحين، وفى أثناء إعداد البرتقش للمائدة أخذ جوان قيثارته ليبث إليها لوعته وحرقته الجديدة:

يا قلبى كابر وقل لى صابر ... عن المغازله وعن المحبه
تقدر تدارى كل اللى جارى ... إلا العواطف ما تستخبى
أنجيل حزامها على قوامها ... خلتلى جمره فى القلب هابه
أصبر عليها تتهنى بيها ... عشق الصبايا دا حبه حبه

حاول جوان من خلال سلوكه وحديثه مع المفتش أن يثبت أنه يعيش عيشة الصالحين وأنه من أهل العلمأيضا كما أنه يقدم خدمات جليلة للإفرنج، وأن ما ذكره أبو لطيفة فى تقاريره عنه غير صحيح،ونجح جوان فيما أراد واقتنع المفتش به وقال له "احنا كنا ظالمينك وجاهلين قيمتك وعلى أى حال كل شيء يتصلح"،أكثر من ذلك أن المفتش بعد الانتهاء من عمله سافر وترك ابنته أنجيل عند جوان كى يعلمها أرقى العلوم ويربيها على مبادئ الشرف والفضيلة.

وبهذا فاز جوان بأنجيل التى أعجب بجمالها وأيضا انتصر على أعدائه ومنافسيه فى مهنة الجوسسة؛ فبعد أن كان مهددا بتقرير يكتبه عنه أبو لطيفة أصبح هو المفوض العام والمشرف على الجواسيس فى المدن المصرية والذى يدفع لهم مرتباتهم وينظر فى شئونهم، وهذا جعله منتشيا ووجه كلامه إلى البرتقش قائلا:

أيا يا برتقش كلمنى ... على أشياء تآلمنى
هتسمع قولى وتلومنى ... وتضربنى بسكينه
أنا الا فرنج أعرفهم ... جميعا داهيه تقرفهم
لهم أشياء تشرفهم ... وأشياء زفت ملعونه
أنا وانت وآه يا احنا ... بنخدمهم بأرواحنا
أمام أعداء بتدبحنا ... إذا الأعداء ظبطونا
ولما يكسبوا العركه ... ويستولوا على التركه
قوامك يفتحوا البركه ... وفى الأعماق يرمونا
يا برتقشى أنا بدى ... أقول لك خد ولا تدى
ولما الزوبعه تعدى ... قوام نرسى على المينا

بعد ذلك قال جوان للبرتقش.. الإفرنج دول مالهمش أمان ولازم لنا باب رزق دايم، وعشان كداه افتح حان فى سوق الخضار وتشتغل فيه أنجيل بنت المفتش البعجونى كساقية تقدم الكؤوس لذوى الفلوس وتخرب الرؤوس.

فى الليلة الأولى لافتتاح حان سوق الخضار لعبت أنجيل بالعقول والألباب وتيمت الكهول والشباب، وكسب جوان مالا كثيرا. وفى ضحى اليوم التالى وقف جوان بجانب فراش أنجيل -التى نامت عند شروق الشمس - وقد نامت أهدابها الطويلة السوداء على خديها الموردين وافتر ثغرها الياقوتى عن ابتسامة خفيفة كابتسامة الزهرة النائمة فى الأكمام، وتناول القيثارة وأخذ فى هذه الأشعار والأنغام:

نامى وقومى يا شبيهة الملايكه ... اسمك وجسمك انت يا أنجيل
ياللى أعادتينى لعز شبابى ... لما على بساطى سحبتى الذيل
وانا اللى مال قلبى إليكى بنظره ... وسنين طويله ماعرفت الميل
ياللى بلا خمره سقتنى محاسنك ... من اختلاف حُسنك كاسات كوكتيل
مشيتى وسط الناس واناكنت أسـ ... ـمع من الصدور آهات تهد الحيل
ولما أعرضتى بفارع قوامك ... سالت دموعهم فوق خدودهم سيل
من ليله واحده هناك رجعتى بنقطه ... أبات أكيّلها هنا بالكيل
يا مصر يا ويلك ويا ألف ويلك ... فى كل ليله لما ييجى الليل
شهداء من الأعيان هتسكر وتندبح ... على دراع بيبرس تنشال شيل

■■ مظلوم فى حان جوان

اشتهر حان جوان الموجود بسوق الخضار وكثر رواده، وأصبح أيضا بؤرة للأشرار ومرتكبى الأوزار سواء بالليل أو النهار، وفى أحد الأيام جاء إليه تاجر بدوى من طرابلس الغرب اسمه " مظلوم "وكان قد جلب معه قطعان كبيرة من الجمال والغنم وباعها فى الإسكندرية بأموال طائلة، وجاء إلى القاهرة التى يسمع عنها طوال حياته ويريد رؤيتها قبل مماته. وفى الحان احتالت عليه عصابة البرتقش - التى تعمل تحت إشراف جوان - فبعدما غلبته الخمر سحبوه وخنقوه وسرقوا كل ما معه من أموال ومصاغ، فلما أفاق ذهب وسأل عن قصر السلطان بيبرس ولما استدل عليه وقف الغلبان على باب القصر وأنشأ يقول صلى على طه الرسول:

حمدا لربى والصلاة على النبى ... واشكى إليك يابيبرس يا محمود
إليك أنا طاوى الفلاة البعيده ... صاعد وهابط بين وهاد ونجود(*)
معى من الأموال والبل(**) والغنم ... ما كان يكفى قوم عاد وثمود
طلع عليا الديب والضبع والأسد ... وبات معايا الليل نمور وأسود
ما صابنى منهم ولا صاب ماشيتى ... ضرر عن الوحش الردى معهود
وجيت لأرض النيل بعت المواشى ... بربع ميه من دهب معدود
وجيت لأهل البيت أقرا الفواتح ... و أزور مقابر ليا فيها جدود
رعيتك يا بيبرس جارت عليا ... كما تجور عالمسلمين يهود

(*) **هاد ونجود:** مخفضات ومرتفعات.

(**) **البل :** الابل.

سقونى بنت الحان وسرقوا فلوسى وفاتونى لا مقتول ولا ملحود

وبمفردى أنا جيت أعرض شكايتى ولا بينه عندى وللا لي شهود

ولما سمعه بيبرس أمر بإدخاله إلى مجلسه ودار بينهما الحوار التالى:

بيبرس : يعنى يا أخا العرب أنت اسم على مسمى، مظلوم وصحيح مظلوم.

مظلوم: أى والله مظلوم يا بيبرس.. عرّونى وخنقونى كما لوكنت يهودى وقع فى يد المسلمين.

بيبرس: فى الحقيقة انت مسلم وقعت فى إيد يهود.

مظلوم: أى والله يهود يا بيبرس..حلفت عليهم بالله ورسول الله انهم ياخدوا المال ويتركونى ما رحمونى وما رحمان غير الله.

بيبرس: سبحانه وتعالى..شوف يا أخا العرب أنت هنا ضيفى وتقيم كما تشاء ولو لطول العمر، وانا ملزوم أدفع لك ال ٥٠٠ دينار اللى راحوا منك، وسوف أجيب لك مصاغ تهديه لأهلك بدل اللى اتسرق منك.

مظلوم: خليهم عندك فى صندوق إلى يوم السفر.

بيبرس: لو أنا جيت عندكم فى طرابلس تقول لى إيه يا مظلوم ؟

مظلوم: اللى نقوله لك عندما تيجى طرابلس نقوله لك توه..توه..نجمع لك أهل طرابلس نساء ورجال ونقول لك(باللهجة البدوية):

يا بيبرس منور دارنا تبرق من تزراك ودرنه

طالع والله لخالك خالد سيف الله عاللى كفرنا(*)

يا بيبرس مشلع نورك على بنغازى قبل حضورك

(*) **اللى كفرنا** : اللى كفروا.

قبـل حضـورك هـذا الـوادى الشـياطين والجـن فررنـا(*)
الشـياطين اللـى حكمونـا الشـياطين اللـى سـرقونا
والشـياطين اللـى قهرونـا رب العـزه الله قهرنـا(*)
عنـدنا حـاكم فاسـق مـارق حـاكم يقطـع يـد السـارق
وإذا اللـص أعطـاه النصـف يكون اللـص إمـام اعصـرنا(*)

(*) **فررنا:** فروا.

(*) **الله قهرنا :** الله قهرهم.

(*) **إمام اعصرنا :** إمام عصرنا.

■■ صدمة جوان

أوكل بيبرس إلى صديقه عتمان ابن الحلوه مهمة البحث عن الذين سرقوا مظلوم البدوى، فاصطحبه إلى حان جوان الذى سكر فيه من قبل وبعدها سرقوه، وهناك تقابل مظلوم مرة أخرى مع أنجيل التىأحبته وأحبها هو بدوره من أول نظرة، حتى إنه أعلن تنازله عن هدايا بيبرس ورفض الرجوع إلى زوجته وأولاده فى طرابلس الغرب، فتعجب عتمان ابن الحلوه من سلوك مظلوم وقال لابد من إرجاعك لبيبرس مرة أخرى، فطلبت أنجيل من مظلوم أن يأخذها معه إلى بيبرس.وفى مجلس السلطان دار الحوار التالى:

عتمان : أهى دى يا اشقر واحده من أهل البيت اللى كان بيزورهم.

بيبرس: ليه تخنقى الراجل دا وتخدى فلوسه؟

أنجيل : أنا؟! أنا خنقتك يا مظلوم؟

مظلوم : حاشاكى يا زينه، الزول اللى يبص فى عينك هيقول ياريتها صوابعك داست على رقبتى، وللا دخلت فى عيونى التنتين، والله يا بيبرس ما لمستنى وكيف تصيبنى بالشر بعد ما حبتها وحبتنى من أول نظره.

بيبرس: من أول نظره؟

أنجيل : والله العظيم من أول نظره، سلم علىّ رديت عليه، رقص رقصت معاه، غنى غنيت معاه، والله العظيم من أول نظره يا بيبرس.

بيبرس: خلاص يا عتمان مادام مش هيه اللى ارتكبت الجريمه تبقى ترجع من مطرح ما جت.

أنجيل : لا لا لأ أنا ما صدقت انى جيتلك يا سلطان عاوزه أقول لك على حاجات كتير، وكنت مش طايلاك كتر خيره مظلوم كتر خيره عم عتمان اللى جابنى.

بيبرس: طيب اقعدى استريحى.. وانت راخر يا مظلوم.. عايزه تقولى إيه يا شاطره؟

أنجيل : أنا مش اسمى آسيا أنا أنجيل بنت أبو نصر البعجونى.

بيبرس: آه سمعنا بيه.. المفتش.

أنجيل : أنت سلطان مدهش.. انت خساره فى الموت.

بيبرس: مين عايز يموتنى؟

أنجيل: أبويا وواحد اسمه جوان فى حارة الروم وملوك أوروبا كلهم عاوزين يموتوك.. أنا عطشانه.

مظلوم: ما سقيتنا يا بيبرس ولا رويتنا ولا أطعمتنا.

بيبرس: ما انتم يا مظلوم أخدتونا فى هيصه رقص وغُنا..أنجيل انتم أصلكم من القدس..مش كدا؟

أنجيل : أبويا لما صلاح الدين الأيوبى أخرج الإفرنج من القدس، هاجرنا إلى فرنسا وعشان أبويا بيعرف عربى وفرنساوى عملوه قنصل يشوف أشغالهم، كنت صغيره لكن أفهم يا سلطان. هنا بلدك مليانه جواسيس بيجيبوا أخبارك كل ساعه، أقول لك على أساميهم ؟

بيبرس:عارفهم..فى دمياط والمنصوره والاسكندريه.

أنجيل : يا سلاااام.. إزاى عرفتهم؟

بيبرس: الله حامينا.. لكن إيه اللى جابك مصر ؟

أنجيل: جيت مع أبويا وبعدين جوان أقنعه انه هيعلمنى العلوم العاليه ويخلينى أدخل بيوت العائلات الإسلاميه وأجيب أخبارهم، وأبويا صدقه، أبويا مسكين قلبه طيب يصدق كل حاجه، جوان العجوز الوحش دا كان عايزنى لنفسه، كل ليله يدق لى على باب حجرتى واعمل نفسى نايمه واسيبه يتفلق. تعرف يا بيبرس هو اللى عامل سوق الخضار دا عشان يسكر الناس ويموتهم وياخد فلوسهم، عارف بيحط الفلوس فين؟

بيبرس: فى الصهريج.

أنجيل : يا عينى يا روحى أنت سلطان عظيم، أنت سحار يروحوا فين جنبك بتوع أوروبا.. اسمع أنا حبيتك لأنك سلطان وحبيت مظلوم لأنه فنان، ومش عاوزه أسيبكم أبداً أعمل إيه بقى؟

عتمان : اسلمى وانا أجوزهولك.

انجيل : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

بيبرس: انتى ومظلوم بعد زواجكم ضيوفى أربعين يوم.

كانت هذه الليلة من الليالى القليلة التى فرح فيها بيبرس بهذا التوفيق الذى أتاحته له العناية الإلهية، فلما خلى بنفسه صلى العشاء ثم تجهد بكتاب الله، وأنشأ يقول.. صلوا على طه الرسول:

سبحان من نوره فى حكمه وحكمته ظاهر ومتجلى لأهل البصاير
سبحان من ذكراه تطمن قلوبنا دايما وترشد للهدى كل حاير
سبحان من يقبل من العبد توبه يعفى بها عما مضى م الكباير
عاجز وانا فى كل ساعه يا خالقى على رضاك عنى أشوف البشاير
عاجز عن الشكران ويا رب أسألك دوام الرضا وياه حسن المصاير
ما كنت أحسب يوم على الخصم والعـ ـدو بأهون الأسباب تدور الدوايـر
بهمة الجُهال كشفنا المخبى وبهمة الأطفال فنينا الزخاير
يا خفى الألطاف ياما تورينا خفى لطفك لو كشفنا الستاير
العبد لو تدبير ومالك إراده يعيش بالتدبير مزعزع وحاير
والعبد لما إليك يفوض أموره تصد عنه كل غاشم وجاير

عندما علم جوان بما كان من أمر أنجيل وزواجها من مظلوم، فقد صوابه واهتز كيانه وذهب إلى بيته وتوجه إلى حجرة أنجيل وغضب الله يكسو محياه، وارتمى على الأرض ووضع رأسه على الفراش وأجهش بالبكاء ثم أنشأ يقول وما أبشع ما يقول :

أنجيل وانا اللى طول حياتى أقاسى ... أهوال وانا منها بدمعى بكيت
سرقوا اللصوص منى خزاين مليئه ... باللولى والألماظ ولا اهتزيت
يا حته من قلبى ما حبك أبوكى ... ولا قلب أمك زى ما حبيت
يا للى مثالك فى بنات الأباطره ... وللا الأكاسره فى العجم ما رأيت
ياريت نهار ما تبعدى عن عيونى ... أكون رفات تحت التراب يا ريت
أول مصيبه اليوم هدت كيانى ... ولا كنت عمرى أقول أنا اتهديت
قاعد فى بيتى وللا قاعد فى تربتى ... كنتى ريحانتى ونور البيت
ما ليش أمل فى الحب بعد فراقك ... وانا اللى عن عهد الشباب وليت
فلو أتانى الموت فى أى لحظه ... أقول خلاص جانى الفرج والغيت

■■ ألاعيب جوان

كان لاعتناق الفتاة أنجيل للإسلام ضربة أصابت صميم قلب جوان، لكنه كتمها وتظاهر بعدم الاهتمام، ولجأ إلى حيلة جهنمية ليسترد بها أنجيل وإعادتها لتعيش معه فى حارة الروم. فأنجيل الآن تعيش مع زوجها مظلوم البدوى ضيفين فى قصر السلطان بيبرس، ولكن ما أسهل الدخول إلى بيوت الملوك والسلاطين مادام فى البلاد كوديات ومنجمين ومنجمات، وهاهو يتصور النعيم الذى سيعود إليه بعد الغياب فأنشأ يقول :

أنجيل يا كنز الهنا ... يا تحفه ما هى من هنا
من غير خِضَاب ولا صِبا ... متكحله ومتزينه
ياللى قوامك لو خطر ... يفجر الماء م الحجر
فى ذمتى ما انتى بشر ... انتى ملاك وربنا
يا روضه ساعه فى ظلها ... تسوى حياتى كلها
غبتى سنه عنى أنا ... وايه جرى لى فى السنه
الدنيا دى أرض وسما ... بايته فى عينى مظلمه
وغفلقت واهى بقت ... روحى عليا هينه
ياللى ضفايرك من دهب ... ياللى خدودك من لهب
طول ما انتى فى أرض العرب ... ما ليكى خلاف بيتى أنا

ظهر جوان على الساحة تحت اسم الحاجة أم عزيزة المغربية المنجمة ودخل بيوت الامراء وسائر رجال الدولة، وكانت تخبر كلاً منهم عن أحواله بالتفصيل وتضيف من عندها ما تشاء من التهويل والتضليل، ذلك لأنها تعرفهم منذ نشأتهم ولا تحتاج من يخبرها عنهم، وقد أدهشتهم مقدرتها وتبركوا برقياتها وتمائمها، وأغدقوا عليها الهدايا النفيسة والأموال، فكانت ترفض الأموال وتقبل الهدايا؛ فكبرت فى أعين القوم وانتشر صيتها إلى قصر السلطان بيبرس وإلى حريم بيبرس حيث تقيم أنجيل، وفى اليوم الموعود دخلت الحاجة أم عزيزة المغربية إلى قصر بيبرس وقد أحاط بها الكبار والصغار من الحريم.

وعلم بيبرس بالأمر وسرعان ما اكتشف الحقيقة وأن الحاجة أم عزيزة المغربية ما هى إلا اللعين جوان، فتظاهر بعدم معرفة الموضوع ورحب بها وأمر باستضافتها فى جناح خاص بالقصر وأوصى بتوفير سبل الإعاشة المريحة لها وأيضا عدم السماح لها بمغادرة القصر إلا بأمره، وهنا انقبض صدر جوان وأظلمت الدنيا فى عينيه وركبه الوسواس الخناس.. هل بيبرس صدق أنه الحاجة أم عزيزة المغربية بالفعل ؟.. أم أنه يسايره كالعادة ويجاريه فى ألاعيبه ليسخر منه ؟! وأخذ جوان يبرطم ويقول:

خيّوب عليك يا جوان ف الصبح والـ ـمسا ومن حياتك للمات خيّوب
حسبت روحك راكب الناس كلها وادى انت شايف إنك المركوب
وقعت فى هوه مامنها مفازه وف شرك منصوب ما فى منه هروب
فى دار عدوى يكرمنى حبايبى كرم يروّعنى وقلبى يدوب
يوماتى تحضرلى صوانى وأنانى من فاخر المأكول والمشروب
كأننى مجرم ومحكوم بشنقه وقدمولـه قبلها المرغوب

فى ذلك الوقت جاءت الأخبار بأن التتار يستعدون لهجوم على بلاد الشام، واضطر بيبرس للخروج بجيوشه على وجه السرعة للتصدى للتتار، وخرج معه مظلوم البدوى زوج أنجيل، فخلا الجو لجوان أو الحاجة أم عزيزة المغربية، وجلست أمام إناء الماء وموقد النار وأخذت ترطن وتبرطم وتخلط العربى باللاوندى واللاتينى بالهندى، ثم أطلقت البخور من سبع علب وجعلت تتأمل الدخان الصاعد ثم نظرت إلى أنجيل وقالت: بخورك يا شابة قال انك متجوزه وجوزك طلع يغزو فى سبيل الله، ربنا ينجيه ويرجعه بالسلامه، ومادام انتى لوحدك تعالى باتى عندى تلات ليالى أشوف ليكى بختك على الهادى، وانا هاحضرلك مكان هادى يحضر فيه الخدم والجان. وافقت أنجيل وتم تحديد الميعاد المنتظر وخرجت الحاجة أم عزيزة (جوان) من القصر بمعرفة أنجيل. وهناك اكتشفت أنجيل ملعوب جوان وخطته لاستدراجها وصرخت وسألته بدهشه هوه أنت ؟ فأجابها قائلا:

أنا المربى يا فاجره عليكى عيناى ساهره
أنا المؤيد بمعجزه من دولة البَبْ باهره
أنا المخطى وخطوتى من بحر روما للقاهره

أنـــا المبـــارك ورقـــوتى تـــرد دينـــك يـــا كـــافره
بنت الأكابر كان ايـه جـرى لـك لـــما عشـــقتى البرابـــره
ما احسبشى زهـره بريئـه طـاهره تطلـــع لئيمـــه ومـــاكره
مـــن اهتمامـــى وطيـــت مقـــامى وبقيـــت مـــنجم وســـاحره
عـــايزك تتـــوبى وتبوســـى إيـــدى وتركعـــى وانتـــى شـــاكره
أو فاســـتعدى يـــا بنـــت دينـــى للـــدفن والتربـــه حاضـــره

أنجيل: ادبحنى أحسن.

جوان : أنا عندى أمر من أبوكى انى أموتك بأى طريقـه تعجبنـى، أسمك أو أشنقك أو أحرقك أو أدفنك حيه..اختارى إنتى.

أنجيل : ابعد عنى.

جوان: أنا بعيد عنك ومش هلمسك بايدى طول ما انتى حيه

وانا حى، وإن كنتى مش عايزه تعاشرينى خليكى هنا فـى البيـت دا، هتلاقى فيه كل لوازمك وعندك الخدم والحشم والعبيد.

أنجبل : لأ موتنى أحسن.

جوان : ما عنديش مانع أموت الجمال دا بايدى، بس ارجعى لـدينك أولا عشان تموتى على ملة أجدادك، وانا بصفتى قسـيس هـا عمـل لـك الواجب قبل روحك ما تطلع.

أنجيل : ههه.. أنت قسيس ؟!

جوان: أنا كردينال.. أبوكى ماعرفكيش دا، وما أطلعكيش على رتبتى ؟

أنجيل : أنا اطلعت على رتبتك بنفسى.. انت حيوان وكذاب وفاسـق وسكير وبتكدب على الكنيسه.

جوان : أنا مع الأسف هاسد باب الدار بالطوب والمونه، وهينزل لك الأكل والميا من سـقف الحجـره اللـى جنبـك.. علـى مهلـك فكـرى ودبرى لغاية ما ترسى على بر.

ما أسرع ما نفذ جوان تهديده وسد باب الدار بجدار ضخم. وهنا أنشأت أنجيل وهى تستغيث بخير من يغيث :

يـــارب تنصـــرنى　　علـــى اللـــى آســـرنى
انـــت اللـــى واعـــدنا　　بـــــالعز والنصـــــره
أنـــا كنـــت فى ضـــلمه　　وســـريت مـــن كلمـــه
إلـــى الهـــدى والنـــور　　ســـبحانه مـــن أســـرى
اسمى انكتـب بسـلام　　فى أمـــــة الاســـــلام
والله لا أنضـــــــام　　فى ســـــاعة العســـــره

واستجاب الله لدعاء أنجيل وهيأ لها من ساعدها على الخروج من سجن جوان، وذهبت إلى قصر السلطان بيبرس حيث كانت تقيم قبل استدراجها إلى هذا المكان، لتكون فى انتظار زوجها مظلوم البدوى الذى – كما قلنا – خرج مع بيبرس لقتال التتر، وعندما علم جوان بذلك بدأ نحيبه وارتفع نشيبه واسمعوا ما قاله شاعر الضلال:

يـا جـوهره كانـت فى إيـدى منـوره　　خطفهـا مـن إيـدى الغـراب وطـار
يا للى الملوك مثلك ما حـازت فريـده　　ترخـى عليهـا فى القصـور أسـتار
طولتى عمرى سـنين وكانـت قصيره　　يـــا مطولـــه ومقصـــره الأعـــمار
كانـت عيونـك لـما يسـبى فـؤادى　　بنظـــره تســـقينى كاســـات النـــار
عجبـى علـى الأقـدار والعمـر كلـه　　أقضـــيه واتعجـــب علـــى الأقـــدار
نبيلـه بنـت نبيـل ويأسـر فؤادهـا　　راعـى غـنم يسـكن خيـام وخفـار
آن الآوان يـا بيبـرس تمسـح جيوشـك　　جحافـل البوهيمونـد يـا صرصـار
وعن قريب يا بيبـرس بالحبـل تتـربط　　وتبـــات مـــع الأســـرى فى دوار
نـادر أنـا يـا بيبـرس بعـد المحاكمـه　　أقطـع رقبتـك يومهـا بالمنشـار
ويومهـا يـا أنجيـل يـاللى كفرتـى　　أربـط علـى خصـرك ألـذ النـار

حاول جوان بعد ذلك عن طريق الإفرنج أن يستعيد أنجيل من خلال عملية تبادل للأسرى، على زعم أنها أسيرة لدى بيبرس، ولما سمعت أنجيل عن هذه المحاولة أنشأت تقول.. صلوا على طه الرسول:

أنا بحمد الله بخطوه مباركه ... من الضلاله للهدى خطيت
دعانى صوت الحق من كل قلبى ... ومن تمام سعدى أنا لبيت
شهدت أن الله لا رب غيره ... وبالرساله للنبى قرّيت
وفوق صراط الحق كاللمح بالبصر ... من الظلام للنور أنا مريت
حبيت كلام الله لما قريته ... يا نعمه أنا ما قريت وما حبيت
ولبست تاج العز بعد المذله ... وسكنت بيت الملك أرفع بيت
قل للى جايلنا يا خدنا أسارى ... من وسط أهلينا يا ريت ما جيت
سبق القضا باللى انكتب للبرايا ... وانا اكتفيت بالله واستغنيت

■■ الأغانى العاطفية

كُتبت هذه الأغانى ضمن السياق الدرامى لسيرة الظاهر بيبرس، وقد كتبها بيرم التونسى بنمط واحد بحيث تكون هناك مطربة وتردد خلفها مجموعة (كورس).

- **الأغنية الأولى**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
	يا عينى آه
عودتنى	أه
على هواك	أه
وتركتنى	
تجرى دموعى والعزول شمتان	
هو الغرام	أه
ظلم وسآم	أه
يا منصفين	
وللا اللى واقع فى الهوى غلبان	
يصعب عليا	أه
عزيز عليا	أه
يذلنى	
وانا اللى أبيع روحى ولا ينهان	
يا عينى أه يا عينى	أه
يا عينى آه	

وجه الحبيب أه
لما يغيب أه
ساعة زمن
لا فى مكان أعيش ولا فى زمان
انعم بوصلك أه
واعمل بأصلك أه
يا سيدى
ولا تنسى إنك عالجمال سلطان
يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية الثانية**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
يومك عليا	أه
بخمسميه	أه
يا هاجرى	
وفين أطولك يا أعز حبيب	
وانا فى انتظارى	أه
أضحك وادارى	أه
يا هاجرى	
وانت اللى من جوه لهيب فى لهيب	
ولامتى يعنى مش هطاوعنى	أه
يا مفترى	أه

وتعيش بعيد عن موطنك وغريب يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية الثالثة**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
أنا فى انتظارك	أه
يا نور عنيا	أه
صباح مسا	
واكون سعيده لو أفوز بسلام	
أوعى تطاوع	أه
اللى يدلك	أه
على الأسى	
كسر الخواطر والسعايا حرام	
اللى قالولك	أه
يا ما بيقولولى	أه
ويحلفوا	
أنا لا أصدق للأعادى كلام	
ياللى جمالك	أه
سبب دلالك	أه
اعطف بقى	
ألا الجمال عمره سنين وايام	
أحلف عليك	أه

بحياة عنيك أه
لا تهتدى
لا ينصفونى منك الحكام
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية الرابعة**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
أنا روحى هامت	آه
من نظره كانت	آه
من غير أمل	
ولا كان رجايا ييجى يوم ألقاه	
كان فين يا قلبى	آه
المستخبى	آه
اللى ظهر	
خلانى أقول تانى وتانى آه	
أنا حبى قادر	آه
ناوى يهاجر	آه
يلعب بروحى	
وادى انت يا ربى اللى عطيته مناه	
يا عينى أه	أه

يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية الخامسة**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
يا ما نادونى	أه
وحذرونى	أه
من الهوى	
قالوا الهوى يا عاشقين جراح	
احنا بدينا	أه
لما هوينا	أه
بحبنا	
جنه وكانت كلها أفراح	
أفراح جمال	أه
أفراح دلال	أه
من ده ودا	
أقداح شربنا بعدها أقداح	
آه عالزمان	أه
بدّل وخان	أه
فى عهدنا	
اللى جمع أبدان على أرواح	
أنا باختيارى	أه
رضيت بنارى	أه

ولوعتى
ولو يفوت العمر كله نواح
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية السادسة**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
تعالى أما اقولك	أه
يا حلو كُلك	أه
ع اللى جرى	
من يوم غيابك أه يا ريته ما كان	
ياما خوّفونى	أه
لما شافونى	أه
عندى أمل	
و عالأمل يا ما يعيش إنسان	
قالوا اللى حبك	أه
وسكن فى قلبك	أه
ولا تعرفه	
هناك فى بُعده والبعيد خوان	
سالت دموعى	أه
وبين ضلوعى	أه

نار تشتعل
والحب ناره ما لها سكان
ياما كنت أدارى أه
دمعى ونارى أه
ولا تنطفى
وبالدموع ما تنطفى النيران
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية السابعة**

المطربة المجموعة
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه
يا قلبى منك أه
على صغر سنك أه
حيرتنى
قل لما تكبر ناوى تعمل إيه
القلب واحد أه
وانت اللى مالكه أه
لو تفلته
ما خفشى ليه يا جميل عليك وعليه
ليه يا حبيبى أه
تحسب ذنوبى أه

واللى سلك
منه المحاسن كله تنساه ليه؟
قرب خلاصك أه
وابعد خلاصك أه
واللى معاه
غايب وحاضر يفتديك بعنيه
يحلف عليك أه
وبحياة عنيك أه
لا تنصفه
من غير يمين اعطف وحن إليه
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية الثامنة**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
وحدك يا قلبى	أه
وكنت جنبى	أه
مونسنى	
والله العوازل كلهم ظُلام	
وحدك يا روحى	أه
ويا عينى نوحى	أه

عاللى انظلم
وفى شبابه يحمل الآلام
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية التاسعة**

المغنية	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
سمح زمانى	أه
والحلو جانى	أه
يا مرحبه	
باللى تولى على الجمال سلطان	
سلم علىّ	أه
ومال إلىّ	أه
ويحق لى	
أفرح ولو إنه ملهش أمان	
ساعة وصاله	أه
فى نور جماله	أه
فيها العوض	
عاللى فات م الصد والحرمان	
ساعة وجوده	أه
وإيدى فى إيده	أه

مين زينا
دا إحنا فى جنه كلها رضوان
ياما أقول له أه
وياما يقول لى أه
يا عازلى
لو كنت تسمح شيء جنان فى جنان
يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية العاشرة**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
أنا با اغنى	أه
واقول واهنى	أه
أحبابنا	
الليله ليله من ليالى العيد	
من مصر جينا	أه
واحبابنا جُونا	أه
وحبنا	
قرب علينا كل طرف بعيد	
إيدى فى إيدك	أه
ياللى وجودك	أه
فى قربنا	
يخذى الأعادى والنبى ويكيد	

قول لى واقولك أه
ياللى أميلك أه
فى مهجتك
أنا سعيده بيك وانت سعيد

- **الأغنية الحادية عشر**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
آن الأوان	أه
والحلو بان	أه
زى القمر	
بعد الغياب ورا السحاب واهو بان	
لما تعطف	أه
وآنس وشرف	أه
يا فرحتى	
جماله زاد وعاد زى زمان	
طوّل يا يومأه	
وياليل تطولأه	
طول المدى	
دا احنا كوانا البعد والهجران	
ياما بكينا	أه
ورفعنا إيدينا	أه
للسما	
نطلب وندعى ربنا الحنان	

- **الأغنية الثانية عشر**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
عينى يا عينى	أه
ليه تشبوكينى	أه
مع الهوى	
ماتحسبيشى كل الهوى أفراح	
والله اللى جانى	أه
أول وتانى	أه
ما يتنسى	
ولا قلت يوم دا شيء ماضى وراح	
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
	يا عينى آه

- **الأغنية الثالثة عشر**

المطربة	المجموعة
يا عينى أه	أه
يا عينى أه	أه
يا عينى آه	يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه	
يا حلو ياللى	أه

دلعك تملى أه
يسُرنى
وف كل فعلك يا جميل جميل
وأما بُعدك أه
عن أهل ودك أه
فيه الخطر
وإذا بدا قلبى لغيرى يميل
يبقى حبيبك أه
لكن يصيبك أه
منه الأذى
واللى يحافظ عالموده قليل
ومين يخونك أه
ياللى عيونك أه
فيها الأمل
للى طريقه للوصال طويل
العين دى نظره أه
وانت أدرى أه
بلوعتى
وشوف مدامع عالخدود تسيل
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

- **الأغنية الرابعة عشر**

المطربة المجموعة
يا عينى أه أه

يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه
جميل يغازل أه
طالع ونازل أه
يحق له
سلطان جماله عالملاح ولاه
والحُسن دوله أه
وكل صوله أه
يخضع لها
سلطان زمانه اللى وراه رعياه
وإحنا هوينا أه
لا ملام علينا أه
ولا علىّ
واللى اللى عقله فى المحاسن تاه
وانا مش بايدى أه
أمرنى يا سيدى أه
ولا عصمتنى
اللى عشقته أمره فى إيد مولاه
ولا هوايا أه
شيء عن رضايا أه
ورغبتى
دا قدر مقدر فى كتاب الله
الفرح كله أه
والعز كله أه
فى الذل لك
ياللى ملوك الأرض تجرى وراك
آه من جفاك أه

آه من رضاك أه
من دا ودا
ومن مرارى وانتظارى آه
يا عينى أه أه
يا عينى أه أه
يا عينى آه يا عينى أه يا عينى أه
يا عينى آه

***

تم بحمد الله

المراجع

١ – الظاهر بيبرس - محمود بيرم التونسى.

مسلسل إذاعى على حلقات من جزأين، تمت إذاعته ١٩٦٠م.

٢ - الظاهر بيبرس -دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة.الهيئة العامة للكتاب.

٣ - حياة الملك الظاهر بيبرس - محمود شلبى

دار الجيل - بيروت.

٤- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر

القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر

تحقيق عبد العزيز الخويطر - الرياض

٥- البنية الأسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس

دكتور إبراهيم عبد العليم حنفى - الهيئة العامة للكتاب.

كتب للمؤلف

صادرة عن جزيرة الورد

١ - الشيخ إمام ونجم.. عشاق بهيه.

٢ - حكاية الشيخ إمام.

٣ - أشعار ناصرية (بالاشتراك مع د. محمد طه)

٤- يتم حاليا كتابة وإعداد النص الورقى للمسلسل الإذاعى "الظاهر بيبرس" تأليف محمود بيرم التونسى.

الفهرس

الإهداء ٣
مقدمة ٥
تقديم ٧
الجزء الأول : مشاهد من التاريخ والسيرة الشعبية ٩
تمهيد ١١
السيرة الظاهرية ١٤
روشتة لكل حاكم ١٩
دمشق أم العواصم ٢١
ما جرى لبغداد ٢٤
يا نيل.. من الجنة منبعك ٢٧
الشجاعة لا تقصر العمر ٣٠
خوارج أمة محمد ٣٢
العفو لمن يستحق العفو ٣٥
النخوة النخوة يا رجال ٣٩
رسالة إلى حاكم خائن ٤٢
على ظهور الخيل ٤٥
كلام فى الحب ٤٩
فى سبيل الله تهون المصاعب ٥١
لا لتوريث الحكم ٥٤
يا إفرنج يا ٥٦
استراتيجية الحرب ٥٩
بيبرس .. فى الحرب لم تخذل له راية ٦١
الجزء الثانى : مشاهد من السيرة الشعبية ٦٣

يا مغيث ٦٥
حقوق الأسرى ٦٨
لا للشعوبية ٧٠
الأمان حق الرعية على الراعى ٧٣
الحرب النفسية تسبق القتال ٧٦
الحكمة سر النجاح فى الدعوة ٧٨
عزيمة الرجال ٨٠
من أم واحدة وأب واحد ٨٤
الأميرة سرين ٨٦
للظلم نهاية ٩٠
سوء الظن ٩٢
يا مصاحب الإفرنج ٩٥
مسير الحي يتلاقى..... ١٠١
المغيبون ١٠٤
جوان ١٠٨
بحر قزوين ١١٢
خيبة الأمل ١١٤
جوان يندب حظه ١١٧
خناقة الجواسيس ١٢١
جوان وعشق الصبايا ١٢٦
مظلوم في حان جوان..... ١٢٩
صدمة جوان ١٣٢
ألاعيب جوان..... ١٣٦
الأغانى العاطفية ١٤٢